

وسائل المجلس الأعلى

للطريق الصوفية

(٣)

الإمام القشيري

حياته وتصوفه وثقافته

د . إبراهيم بسيوني

أستاذ الفكر الإسلامي بجامعة عين شمس

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأدب بالقاهرة ت: ٨٦٨-٣٩٠٠

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمي

الاسكندرية

رسائل المجلس الأعلى
للطرق الصوفية
(٣)

الإمامُ القُشَيْرِيُّ
حياته وتصوفه وثقافته

د . إبراهيم بسيوني
أستاذ الفكر الإسلامي بجامعة عين شمس

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا القاهرة
ت : ٣٩٠٠٨٦٨

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

جميع الحقوق محفوظة

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ،
وبعد: فهذا هو الكتاب الثالث فى سلسلة الكتب الثقافية التى تصدر
عن المجلس الأعلى للطرق الصوفية ، وموضوعه « الإمام القشيري :
حياته وتصوفه وثقافته » .

ومؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ الدكتور إبراهيم بسيونى ، الأستاذ
بجامعة عين شمس ، وهو زميل متخصص فى دراسات التصوف
الإسلامى بوجه عام ، وفى تصوف القشيري بوجه خاص ، وقد أنفق
سنوات من عمره حتى حصل على الدكتوراه ببحث عن هذا الصوفى
الجليل . ونشر عددا من مؤلفاته العلمية نشرًا محققًا ، وقد تقبلها
الدارسون بقبول حسن لأنها تسد فراغا فى مكتبة التصوف ، ولأنها
تقدم صورة رائعة لتصوف إمام من أئمة التصوف السني كان له فى
تاريخه شأن كبير .

وأذكر من مصنفات القشيري التى حققها الدكتور إبراهيم بسيونى
كتاب « لطائف الإشارات » فى تفسير القرآن الكريم « والتحبير فى
التذكير » ، و« ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى » .

وقد تضمن هذا الكتاب الذى نقدمه للقارئ حياة الإمام القشيري
بالتفصيل ، والبيئة التى نشأ فيها ، وكيف استفاد من أستاذه الصوفى
الشهير أبى على الدقاق ، وكيف كانت صلته بإمام الحرمين أبى المعالى
الجوينى ، وكيف ناصرا معاً مذهب أهل السنة والجماعة الكلامى ،
والمحنة التى مر بها القشيري فى حياته .

كذلك بين لنا المؤلف اهتمامات القشيري بعلوم الشريعة ، كعلوم الكلام والتفسير والحديث والفقه ، ثم عرض بعد ذلك لتصوفه ، ومذهبه فى التخلق ، وضرورة التأدب بشيخ وقضية لبس الصوف ، والتخلق بأخلاق الفتيان ، والعزلة ، والسماع ، ومقامات الطريق إلى الله تعالى . وعرض لمذهب القشيري فى الذوق والحب والفناء ، والتحقق والعلاقة بين الشريعة والحقيقة ، والمشاهدة والعرفان ، وأوصاف العارفين ، والولاية ، والذكر وأقسامه .

ويختتم الباحث كتابه بكلام عن القشيري والشعر الصوفى ، فينقلنا بذلك إلى روضة من رياض الصوفية ، حيث تجدد النفس متعتها الروحية .

ونحن قد سعدنا بهذا الكتاب ، وبقيننا أن القارئ الكريم سيجد فيه مثلاً من أمثلة شخصيات التصوف المحببة إلى النفس ، وسيجد فيه نهوضاً بروحه فى مدارج الطريق إلى الله ، فقد كان القشيري شيخاً مريباً للنفوس ، مرشداً لها إلى طريق الخير .

نسأل الله تعالى لمؤلف هذا الكتاب كل توفيق وسداد ، وأن يجزيه عنا خير الجزاء ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

تحريراً فى : أول ربيع الأول ١٤١٣ هـ

٣٠ أغسطس ١٩٩٢

دكتور

أبر الوفا الغنيمى التفتازانى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الإمام أبو القاسم زين الإسلام عبد الكريم القشيري شخصية مرموقة فى تاريخ الفكر الإسلامى بعامة وفى التصوف بخاصة .

ونستطيع القول - بلا مبالغة - إن أى بحث فى خدمة التصوف الإسلامى ، أى الذى يتفق وأصول الإسلام ، لا يستطيع أن ينهض دون أن يرجع الباحث إلى القشيري .

وينطبق هذا أيضاً على الباحثين فى الغرب .. فيهمهم دائماً أن يعرجوا على الإمام القشيري على أساس أن رؤيته الخاصة تمثل رأى الاعتدال فى هذا المجال .

وقد شرفنى وأسعدنى أن أتصل به فى مجال حياتى العلمية والتعليمية طوال أكثر من نصف قرن . وكان ذلك منذ بدأت أعد بحث الماجستير عن الشعر الصوفى فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، ثم كان بحث الدكتوراه عن هذا الإمام الجليل .

وامتد التواصل خلال نشرى لكتبه العظيمة بعد عشورى على

معظمها خلال رحلات طويلة فى أصقاع الأرض البعيدة والقريبة .

وبعد أن ظل الناس مئات السنين لا يعرفون الرجل إلا من خلال كتاب واحد تقريباً هو « الرسالة القشيرية » أصبحوا يعرفونه الآن من خلال مصنفات جمّة ، وقفنا لها العمر والبصر والعافية ، وأعطيناها كل الجهد والهمة حتى تصل إلى أيدي الناس ميسورة ومشروحة وذات تعليقات وهوامش وتخرجات تمنحها - وقد منحتها فعلاً - اقتراباً من عقول الناس ووجداناتهم وأذواقهم ، فطبع معظمها عدة مرات ، مما يدل على أن قراء الثقافة الرفيعة فى أنحاء العالم الإسلامى ما زالوا من حيث العدد والقدر موضع الاحترام والتقدير .

وأثبت ذلك فى ذات الوقت أن « الرسالة » ظلمته حين شهرته ، وأوقفت اسمه عليها ، والآن وقد أصبح فى منطقة الضوء ، وبعد ما أقبل الباحثون الشبان على دراسته ، فإن هذا يسعدنى ويبهجنى .

وأسعد وأبتهج اليوم أكثر وأكثر ، وأنا أقدم لمشيخة الطرق الصوفية الموقرة هذا البحث العلمى فى عهد رائدها الأخ الكبير الأستاذ الجليل الدكتور أبو الوفا التفتازانى .. وفقه الله وسدد خطاه ..

د . إبراهيم بسيونس

البيئة الصغرى للمقشيزى

والآن ...

لنقترب من الرجل ، ولننتعرف إلى أهله وبيته والظروف التى أحاطت بالفترة المبكرة من حياته ، فإنها بلا ريب قد تركت آثارها الواضحة فى كل حركاته وأنشطته وتصانيفه فيما بعد .

فى ربيع الأول عام ٣٧٦ هـ ولد عبد الكريم فى قرية صغيرة اسمها « أشتوا » على مقربة من المدينة العظيمة العتيدة - نيسابور - فى إيران الآن .

ونستعجل الأحداث ، فنقول إنه توفى فى عام ٤٦٥ هـ ، ومعنى هذا أنه عاش ما يقرب من تسعين عاماً فى أخريات القرن الرابع وشطراً كبيراً من القرن الخامس الهجريين ، وهى فترة نعلم بأنها - وإن كانت عصر اضطراب سياسى - إلا أنها كانت عصر التائق والابتكار فى العلوم الإسلامية ، عصر تقعيد العلوم ، وتأصيل المتون والشروح .

واسمه الكامل : عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن

طلحة بن محمد القشيري . وكُنيتُه أبو القاسم ، ولقبه زين الإسلام ، وشهرته القشيري .

وقد غلبنا في اسم جده ما وقع عليه إجماع ابن خلكان ، وابن العماد ، وابن عساكر ، وتاج الدين السبكي .

وللقشيري أهمية خاصة من حيث إنه عربى النسب من ناحية أبيه ومن ناحية أمه ، ونلح في هذه النقطة لأن أغلب علماء هذه المنطقة من أصول غير عربية مع عظم أقدارهم .. وهذه نقطة لا تهمنا كثيراً ، لأن أخوة الإسلام صهرت كل هذه الفروق وأصبح نسب الإسلام له الغلبة ، وإنما نقولها لبعض علماء المغرب الذين يحاولون - عامدين - أن يجردوا العنصر العربى من كل أصالة فى شيء .

خرج بنو قشير مع الفتح الإسلامى ، فاتجهت منهم موجة نحو المغرب وموجة نحو المشرق ، واستقر بعضهم فى مصر .. وكان لهم شأن سواء فى الأندلس أو فى خراسان ونيسابور .

وتتأكد عرويته أكثر حينما نعرف أن أمه سُلمية ، فهى أخت أبى عقيل السُّلمى من وجوه المنطقة وأعيانها .

* * *

ويتلقى الصبى علومه الأولى على يدى أبى القاسم

العليمانى ، ويتقن العلوم الإسلامية ، ويزيد على ذلك بإتقانه
للحساب .

وتمر ببلاده فترة ضيق اقتصادى شديد نتيجة الانتقال من
الحكم السامانى إلى الحكم الغزنوى .

ويختار القوم عبد الكريم القشيرى ضمن طائفة من شبان
القرية كى يتجهوا إلى نيسابور ، لزيادة إتقانهم للمحاسبة
حتى يُمكن تنظيم الأمور ، وبالتالي تخفيف الأعباء التى
أثقلت كواهل الناس .

تلك كانت الرحلة الأولى فى حياته ، والتى كانت فى ذات
الوقت بداية انتقال هامة .

نعم .. فما أن دخل منتدىً يُلقى فيه أبو إسحاق
الإسفرايينى درساً فى علم الكلام حتى شعر بأنه قد انتقل إلى
وادٍ جديد من أودية المعرفة التى لم يكن له بها سابق دراية ،
وينتقل من هذا المنتدى إلى منتدى آخر يُلقى فيه ابن فورك
دروسه حتى يهيم حباً بمثل هذه الدروس ، وهكذا أخذ ينتقل
من مجلس إلى مجلس حتى تكون لديه آخر الأمر إحساس
جارف بأن نيسابور كلها ليست إلا مجمعاً علمياً لعلوم الأصول
والفقه والحديث والكلام فضلاً عن منابر اللغة والأدب ، كلها
تزخر بأكابر القوم ذوى الأسماء اللامعة التى تشع من مشرق

العالم الإسلامى إلى سائر الأمصار أنواراً لا تتناهى ، وأصبح الشاب طالب مادة الحساب تلميذاً مثابراً فى علوم العقل والنقل ، بصحبة أتراب وشيوخ لهم عنده كل الحب والإجلال والاحترام ، وبخاصة حينما كان يلمح على الدوام اتصاف هؤلاء وأولئك بسمه الزهادة والورع والتقوى ، فالتفت منذ وقت مبكر إلى أن العلم الصحيح هو المصحوب بالعمل .. وأن هذا هو أصل أصيل فى التربية التى ينشدها الإسلام للناشئة .

ونكتفى بمثلين لهذا الرعيل العظيم من شيوخه ، وهو الشيخ أبو بكر محمد بن أبى بكر الطوسى « إمام أصحاب الشافعية وفقههم ، وكان له الدرس والأصحاب ومجالس النظر » - كما يقول كتاب التراجم ، ويضيفون أنه كان ورعاً زاهداً شديد الحب للخلوة والفكرة ، تاركاً لكل عروض الجاه التى عُرِضت عليه ، فظهرت بركته - كما يقول السبكى - على تلاميذه وأصحابه .

وفى مجلسه تعرف القشيري على صديق عمره أبى عبد الرحمن السلمى - صاحب الطبقات الصوفية المعروف - (طبقات الشافعية ج ٣ ص ٤٩) ، وهو من ذوى قرباه من ناحية أمه .
أما الأستاذ الإسفرايينى فهو (أحد أئمة الدين كلاماً

وأصولاً وفروعاً ، وقد بُنيت المدرسة النظامية الشهيرة لأجله ، وكان يحضر مجالسه سبعمائة فقيه ، وصفوه بقولهم : لو رآه الشافعى لفرح به . وله كتب فى الفقه ، تناولها كثيرون كالبيهقى والقشبرى (شذرات الذهب حوادث سنة ٤٠٦) و (طبقات الشافعية ج ٣ ص ١١٢) .

و ذات يوم قال الإسفرايينى لتلميذه القشبرى : « أما عَلِمْتَ يا بنى أن هذا العلم لا يُحْمَلُ بالسماع ؟! » .

وإذ بالقشبرى يعيد على الشيخ كل ما سمعه ، ويقرره أحسن تقرير من غير إخلال بشيء ، فيقول الشيخ : « ما كنت أدرى يا بنى أنك قد بلغت هذا المحل ؛ فلست تحتاج إلى درس ، وكفيك أن تقرأ مصنفاتى ، وتنظر فى طريقتى ، فإذا أشكل عليك شيء طالعتنى » .

ويستمع القشبرى إلى نصيحة شيخه ، ويزيد بأن يطالع مصنفات الباقلاتى وغيره .

● نقطة تحول جديدة بعيدة الأثر فى حياة القشبرى :

وبينما القشبرى مشغول الهمة بهذه الدراسات العقلية والنقلية ، دأب الاتصال بهذا الطراز من الشيخ ، يسوقه القدر إلى مجلس من نوع آخر ليستمع إلى شيخ من طراز جديد :

● مجلس أبي على الدقاق :

يستمعُ القشيري إلى حديث بارع ممتع في المجاهدات والرياضات ، وفي الحقائق والأحوال ، وفي الأذواق والمواجيد ، وفي الكشف والعرفان .. وفي التجرد من العلائق والخلائق ، وفي التهيؤ لرحلة سنية غايتها الله سبحانه .. المحبوب الأسمى والأسنى ، وثمرتها معارف من طراز راقٍ يفوق علوم العقل والنقل ... فهتف في أعماقه : « يا إلهي .. إنني لهذا خلقت ! » .

أسرَّ الحديثُ لبَّه ، وفجرَ عاطفته ، وفتح أمام بصيرته عوالم جديدة ، ولم يعد يطبق بعداً عن هذا المجلس أو عن هذا الشيخ ، فثابر وثابر ، ودنا من الشيخ شيئاً فشيئاً حتى جرؤ ذات مرة على أن يتقدم منه وأن يشكو إليه أمراً حزينه ، إنه متصل بعلوم الأصول والكلام والفقه والتفسير والحديث ، ولكنه في ذات الوقت لا يستطيع الفكاك من حضور هذا المجلس ، والاستماع إليه ، قابتسم الشيخ وريت على كتفه وقال : « عليك يا بني ألا تقطع دراستك هنالك حتى تطمئن إلى أنك قد أتقنت محصولاً كافياً ترضى عنه » .

فانصرف يجمع بين الدراستين ، ولكن مجلس الدقاق كان

أعظم أثراً وتأثيراً ، خصوصاً بعد أن استراح إلى نقطة ، يمكن أن يستريح عندها من زاد العقل والنقل .

هذه المرحلة فى طلب العلم تركت أثرها البعيد البعيد فى حياة القشيري كلها ، ولقد تجلّت آثار هذه الثقافات على نحو واضح بارز فى كل مؤلفاته ، كما أنها أعطت لآرائه فى التصوف قيمة علمية أكبر وأخطر .. لأنها صادرة عن رجل من أهل السنّة ، يتقن علوم العقل والنقل ، ثم يختار طريق الحقيقة إلى جوار طريق الشريعة ، وأخيراً يمنح التصوف وأهله زاداً علمياً متدفقاً لا التواء فيه ، ولا جنوح عن غرض أو مرض أو ادعاء .

ثم إنها أخيراً مرحلة ملأت فراغ حياته ، وهو ذلك الشاب المغترب عن أهله فى هذه المدينة الواسعة نيسابور ، فلم يعد له من وقت كى يعانى ضغوطاً نفسية شأن من فى عمره آنذاك ، ولم يشعر بضيق أو ملل ، كل ذلك كان له أثره فى إنتاجه العلمى كما سنرى .

وأعجب الدقاق بتلميذه ، ولمح فيه النجابة والمثابرة والصدق والتقوى ، وأسعده أن يحاول الجمع بين علوم الشريعة وعلوم الحقيقة فى استقامة وتواضع ، فقرّبه منه ، ثم اختاره زوجاً لابنته الوحيدة فاطمة مؤثراً إياه على سائر أقرانها الذين تقدموا لخطبتها : (وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٧٥) .

وهكذا توثقت الصلة بين الشاب والشيخ ، وصار الدقاق رائده وملهمه ، فهو يهرع إليه كلما ألم به أمر ، أو عرضت له مشكلة ، والشيخ يُبَصِّرُ المريد بآفات النفس وعلاجها ، ويكشف له عن الكثير من الخفايا والدقائق

ويهمنا هنا أن نتوقف قليلاً عند الشيخ الدقاق قاصدين أولاً أن نعرف بهذه الشخصية العظيمة التي قلَّ من الناس - حتى المتصلين بالتصوف - من يعرف عنها كثيراً ، وقاصدين ثانياً أن نوضح « الطريقة » أو السند الذي اتبعه الشيخ القشيري منذ كان مريداً حتى نثبت أن فكرة « الطريقة » لها أصول تاريخية في العلم الصوفى ، وقاصدين ثالثاً أن نضرب مثلاً على الاحترام والذي كان يتمتع به الشيوخ في نظر المريدين حتى يستفيد من ذلك ناشئة التصوف وشبابهم .

لأجل هذا كله لا ضير أن نتوقف قليلاً عند سيرة الشيخ أبى على الحسن الدقاق .

إن اسم الدقاق لا يكاد يغيب عن عين القارىء لأى كتاب من كتب القشيري ، وهو يأتى مقروناً بالقباب الاحترام والتكريم مثل (قال الأستاذ) ، (وقال الأستاذ أبو على) ، و (الشهيد) .. ويكون الرأى من قبيل حسم الموقف فى

الموضوع المطروح .. كأنه يريد أن يقول : لا مناقشة بعد قول شيخى ! ؟ .. وهذا فرع من فروع الأخلاق المألوفة فى الصوفية « فالذى يقول لِمَ ؟ لشيخه لا يفلح » فالشيخ بالنسبة للمريد كفارس الشجرة وراعيها .

يقول عنه - أى عن الدقاق - عبد الرؤوف المناوى فى كتابه « الكواكب الدرية فى تراجم الصوفية » : « .. هو أبو على الحسن الدقاق النيسابورى الشافعى ، كان لسان وقته وإمام عصره ، فارهاً فى العلم ، محمود السيرة ، مجهود السريرة ، جنيدى الطريقة ، سرى الحقيقة . أخذ مذهب الشافعى عن القفال والحصرى وغيرهما ، وبرع فى الأصول ، وفى الفقه ، وفى العربية حتى شُدَّتْ إليه الرحال فى ذلك ، ثم أخذ فى العمل وسلك طريق التصوف آخذاً عن النصراباذى ، وعنه أخذ صاحب « الرسالة » (يقصد القشيرى) ، وله كرامات ظاهرة ومكاشفات باهرة .

قيل له : لِمَ زهدت فى الدنيا ؟ قال : لِمَا زهدت فى أكثرها
أنفتُ الرغبة فى أقلها .

وكان كثيراً ما ينشد :

أحسنْتَ ظنك بالأيام إذ حَسُنْتُ

ولم تَحْفَ شَرُّ ما يأتى به القَدَرُ

وسألتك الليالى فاغترتَ بها

وعند صفو الليالى يحدث الكدرُ

انتهى كلام المناوى عن الدقاق ، وتكاد تكون فى تفاصيلها خلاصة لسيرة القشبرى نفسه ، ونحن لا نستطيع أن نغادر هذه الجوانب فى حياة القشبرى دون أن نتحدث عن شخصية هامة لها شهرتها العظيمة ، ونقصد به إمام الحرمين أبا المعالى الجوينى . فقلقد كان صديقاً للقشبرى أقرب إلى التلميذ ، وشاركه فى نصره المذهب الأشعرى - مذهب أهل السنة فى بلاد المشرق ، واكتوى مثله بالمحنة التى ألمت بأهل السنة فى خراسان - والتى سنتحدث عنها بعد قليل ، وخرج معه إلى المنفى فى إثرها ، وعادا سوياً بعد لنقشاعها ، ثم لم يفترقا بعد ذلك .

ومن المعروف أن الوزير الهمام العظيم نظام الملك كان من أشد المعجبين بالجوينى ، ولأجله جعل المدرسة النظامية فى نيسابور أشبه بالجامعة فى عصرنا الحاضر .

وفى رأينا أن الجوينى يمثل حلقة الاتصال بين القشبرى من ناحية وبين الإمام أبى حامد الغزالى - تلميذ الجوينى - من ناحية أخرى .

وكان الجوينى صاحب نزعة صوفية (وكان إذا تحدث فى

الأحوال وخاض فى علم التصوف أبكى الحاضرين ببيكاته ،
وقطر الدم من الجفون بزغاته وقراءاته وإشاراتة لاحتراقه فى
نفسه ، ولتحقيقه بما يرى من دقائق الأسرار (طبقات الشافعية
ج ٣ ص ٢٥٧ .

ويهمنا كذلك أن نشير إلى أن القشيري عملَ لكسب عيشه
منذ عهد مبكر ، ولم يكن عالماً على أحد حتى إذا وصل إلى
الثلاثين من عمره عُيِّن فى التدريس بمسجد المطرز يومين كل
أسبوع ، كما أنه عمل بالتأليف دون انقطاع ، وله تفسير كبير
اسمه « التيسير فى التفسير » أنهاء قبل ٤١٠ هـ ، وبقي
يواصل التدريس والتأليف حتى لقي ربه ، وقد حصلنا على
جزئه الخامس مخطوطاً فى مدينة طشقند .

* * *

المحنة الكبرى فى حياته

ذاع صيت القشيري فى أرجاء العالم الإسلامى بعامة وفى
المشرق بخاصة وفى نيسابور بصفة أخص ، فأثار ذلك حقد
كثيرين من أعداء المذهب الأشعرى .

وكان السلطان طغرل بك سنياً حنيفياً ، أما وزيره الكندرى
فكان رافضياً خبيث العقيدة ، يضر الحقد لكل الأشاعرة .

وفى هذا الوقت كان بنيسابور شخصية فذة ، لها فى أوساط العامة والخاصة نفوذ كبير ومحبة فائقة ، ذلکم هو الأستاذ أبو سهل بن الموفق أحد رجال الطبقة الرابعة الشافعية ، وكان مرموقاً بالوزارة ، ونظراً لما عرف عنه من تعلق بالمذهب الأشعرى ، فقد ألّهي ذلك حقد الوزير اللثيم الكندرى ، فأراد أن يکيد له ولكل الأشاعرة .. فذهب إلى السلطان ، واستأذنه أن يَسْبُ أهل البدعة على المنابر .. فأذن له ، ولكنه بسبب خبثه حشر اسم أبى الحسن الأشعرى ضمن المبتدعة . وفوجئ الناس ذات يوم بهذه الحيلة الخبيثة المنسوبة زوراً إلى أوامر السلطان ، فهاج القوم وماجوا ، واشتعلت فى المنطقة كلها فتنة ذات خطر ، وتعرض أصحاب الأشعرى - وفى مقدمتهم القشيرى وأبو سهل الموفق والبيهقى وآخرون من أئمة القوم - لكل ألوان السخرية والإيذاء . وتم القبض عليهم ونفيهم إلى خارج البلاد ، وباءت محاولة الاتصال بالسلطان وتوضيح الأمر له - عن حقيقة الأوضاع - بالإخفاق . فلم يكن بُدٌ من مهاجرة البلاد .

فترك القشيرى أهله وأسرته وداره فى رعاية ربه وعنايته ، وأخذ يتنقل فى البلاد حتى قَدِمَ بغداد ، وورَدَ على الخليفة القائم بالله ، فأكرم وفادته ، وأحسن استقباله ، وعقد له المجلس فى منزله الخاصة ، وفى مساجد بغداد ، وقد شهد

الخطيب البغدادي - صاحب تاريخ بغداد - بعض هذه المجالس عام ٤٤٨ هـ وما بعده ، وكتب عنه ، وأثنى عليه وعلى فيض علمه وورعه وقال : « حدثنا وكان ثقة » (ج ١٠ ص ٨٣) .
 وذهب القشيري للحج ، وهناك التقى بصديقه إمام الحرمين وبعدد كبير من أئمة المشرق الذين هربوا من الأذى والمحنة .

وما أن انتهت مراسم الحج حتى بدأ الجميع يعيدون النظر في أمرهم ، واختلفت وجهات النظر بين مشجع على العودة ومتردد وبين مؤكد ضرورة البقاء والمجاورة ، ولكنهم اتفقوا جميعاً على رأى واحد آخر الأمر : هو أن يختاروا واحداً منهم بعد نقاش ثم يمثّلوا لرأيه بلا نقاش .

ومن عجب أن يكون المختار هو القشيري ، مما يدل على إجماع الرؤية حول صلاحه وفطنته ويُعد رؤيته ، فصعد المنبر وظل يتكلم وهم يستمعون إليه في شغف زائد .

ومرت لحظات صعبة ، صمت فيها الجميع إلا القشيري ، وأطرق ملياً ، ثم رفع رأسه في ضراعة فائقة إلى السماء ، ثم أعاد إطراره إلى الأرض مرة ثانية ، ثم قبض على لحيته وصاح في صوت عال : « يا أهل خراسان بلادكم بلادكم ، إن الكندري غريمكم يُقَطِّع الآن إِرَباً إِرَباً .. وإنى أشاهده الساعة ، وقد تمزقت أعضاؤه » .

ثم أنشد :

عميدَ الملك ساعدك الليالى على ما شئت من درك المعالى
فلم يكُ منك شىء غير أمرٍ يلغى المسلمين على التوالى
فقابلك البلاء بما تلاقى فذُق ما تستحق من الوال
(تبين كذب المفتري لابن عساكر ط . ليدن ص ٩٣) .

ويقول السبكى : « وضبط التاريخ فكان ذلك اليوم بعينه ،
وتلك الساعة بعينها قد أمر السلطان بأن يقطع الكندرى إرباً
إرباً ، وأن يرسل كل عضو منه إلى كل مكان » .

أما القشيري فقد كانت هذه السنوات العشر (من ٤٤٥ هـ
إلى ٤٥٥ هـ) أشد سنى عمره آلاماً ، تشرّد فيها عن داره
وأهله ووطنه إلا أنها زادتة تجربةً وخبرةً ، ووثقت صلته بعلماء
العالم الإسلامى كله ، وكتب فى تلك المحنة كتابه الجميل :
(شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة) ونزعم أن
ننشره مشروحاً باستفاضة بإذن الله .

ويعود إلى نيسابور مدينته الحبيبة ، ويقضى بها عشر
سنوات أخرى مكرماً محترماً ، ومطاعاً ومعظماً ، « وبلغ
المنتقمون إليه آلاًفاً ، وتصانيفه أطرافاً » (تاريخ نيسابور
لعبد الغافر) .

ووضع السلطان ألب أرسلان موضع التَّجِلَّة والتَّكْرِيم ،
وتتلمذ عليه صفوة من أهل الطريق ، نهجوا منهجه .

* * *

أبناءؤه

تُعرف للقشيري بنتاً واحدة ، هي أُمّة الرحيم ، ورد اسمها في ترجمة ابنها عبد الغافر الفارسي ، صاحب تاريخ نيسابور (قاموس الأعلام مكتوب باللغة الأوزبكية وموجود بمكتبة الإدارة الدينية للمسلمين في مدينة طشقند) ، ونعرف له ستة أبناء ، كلهم عبادلة ، وكلهم أئمة ، والبنت والأبناء جميعاً من السيدة فاطمة بنت أبي على الدقاق كما أسلفنا .

وسلك الأبناء مسلك أبيهم في علوم الشريعة والحقيقة ، وقد ترجم لهم السبكي في طبقاته ، كما تحدث عنهم ابن عساكر وابن خلكان .

ونحن نثير هنا نقطة هامة : إذ يحدث أن يعثر الباحث على كتاب يكون صاحبه القشيري ، فيسرع بنسبته إلى الأب ، وربما كان لعبد الرحمن ، أو عبد الواحد ، أو عبد الله ، أو أي واحد من الأشقاء .. ولهذا نؤكد أن يتحرى الباحث صحة نسبة الكتاب إلى صاحبه .. إذ الكل سواء في المسلك والمنهج والورع .. ولا عجب في ذلك . فكلهم فروع من أصل عظيم واحد .

وتحل الشهور الأولى من عام ٤٦٥ هـ ومعها المرض
والهزال ، وتفيض روحه الطاهرة إلى بارئها وهو يصلى واقفاً
فى السادس عشر من ربيع الآخر ، ويوارى إلى جوار صهره
وملهمه أبى على الدقاق .. فى مقبرة تزار ويتبرك الناس بها
حتى الآن .

* * *

دراسة مختصرة لاهتمامه بعلوم النقل والعقل

سؤال يطرح نفسه : ما الذى جعل للإمام القشيري هذا
الوضع المتميز فى المباحث الصوفية ، بحيث أصبحت كلمته
فى التصوف جدية بالاهتمام والاحترام عبر العصور ، كما
ذكرنا فى تقديم هذا الكتاب ؟

فى تقديرنا أن كلمات الرجل أخذت هذه المكانة نتيجة
بعض العوامل الهامة :

أولها : أنه رجل من أوساط أهل السنّة المرموقين .. ثم هو
يعتز بانتمائه إلى التصوف وأهله .. وهذا فى حد ذاته مناط
تدعيم للعلوم الصوفية لا يجترىء أحد على التقليل منه .

ثانيها : أنه رجل وضع من سيرته - كما أوضحنا فى عجالة
- أنه أقبل على التصوف بعد أن تزود بزادٍ ثرى رائع من علوم
العقل والنقل . وهذه البداية لقيت تشجيع شيخه الدقاق بعد
اتصاله به ، ولم يختط طريق التصوف على نحو عشوائى ، بل
هو رجل دارس فاهم راعٍ لكل متطلبات الثقافة الأصيلة فى
عصره ، وهذه بدورها لها قيمتها . لأنك لو رجعت إلى
الأصول الأصيلة عند كبار رجال التصوف لوجدتها ضرورة
إتقان علوم الشريعة وتكريس الإيمان .

ذلك لأن الرحلة الصوفية - فيما بعد - فيها جوانب وعرة ،
ربما ينجرف الزورق بصاحبه إلى متاهات ، ربما لا تحتل إرادته

مصاعب السفر ، ربما غلب الغرض أو المرض على الدافع
الأصلى ، ربما أصابته الدعوى والادعاء عند أول بادرة من
بوادر الكشف ، ربما .. ربما .

هذه علل يؤمن العبد من الوقوع فيها ، عندما يكون
متحصناً فى الأساس بعلوم النقل والعقل .. وبكلمات أخرى
يكون الوعى بكل أطراف القصة حاضراً وداعماً ومؤيداً .

وأخيراً .. فإتنا لو قفزنا قفزة هائلة إلى أعظم ما توصل
إليه كبار القوم من نتائج لوجدناهم يلحون على احترام الشريعة
واحترام الحقيقة وأن كليهما مناط الرجاء ، والمحافظة عليهما
معاً بغية الآمل .. بل هى حقيقة كون المرء عارفاً بالله - حقاً
وصدقاً .

لأجل هذا نرانا مضطرين - ونحن نعتذر للقارىء - أن
نتمهل قليلاً وسريعاً عند أهم المواقف العقلية والنقلية التى
اتخذها القشبرى سبيلاً لاختيار نمط ثقافته الصوفية ، بل بذل
فيها أقصى درجات الجهد ، وآية ذلك أنه ترك آثاراً فى علوم
الشريعة رائعة أشد ما تكون الروعة ، فهو - على سبيل المثال -
لو أخذ مفسراً فعنده ما يكفى لإثبات ارتفاع نجمه فى ذلك ،
ولو أخذ متكلماً فعنده من المصنفات والآراء ما يمنحه الاحترام
والإجلال ، ولو أخذ محدثاً فليده شهادات من تلامذته والذين

أخذوا عنه تثبت جدارته وتصدره .. ومن قبل ذلك وبعده فهو
عليم باللغة والأدب ، بل هو شاعر مجيد .. وهذه كلها كانت
ذات يوم هى الحدود المعترف بها فى إطار ثقافة المثقف فى
عصره ..

فإذا أقبل بعد كل هذا على التصوف .. فهو جدير بأن
تكون له من المعطيات والمردودات الفكرية والقلبية والذوقية
والعاطفية ونحو ذلك مما يتصل بعلوم الحقيقة ، بحيث يستحق
من قارئه فيما مضى من الزمن وفيما نحن فيه الآن وفى
المستقبل إن شاء الله - كل التوقير والاحترام .

هى إذاً طبيعة المنهج الذى اخترناه لفحص تصوف الشيخ ،
وهى قبل كل ذلك خط سيره التربوى منذ نشأته إلى يفاعته
إلى شبابه إلى شيخوخته .

ونكون بذلك قد وضعناه فى المحل اللائق به عندما نتصدى
بإذن الله لدراسة (تصوفه) دراسة خالصة ، وهذا ما دفعنا
للنص على دراسة « ثقافته » فى عنوان هذا الكتيب .

بل إن هناك تخطيطاً أبعد لأشياء أخرى ، لو تعاملنا مع
هذا المنهج فى التناول تعاملأ أكثر دقة وأكثر استفادة ، ذلك
أننا - أهل هذا العصر - نستطيع أن نبدأ فى استجماع قضايا
فى علوم الأخلاق والنفس والتربية بل الجمال وغير ذلك من

العلوم المستحدثة ، فندلى بدلو لنا فيها من واقع التراث الذى تركه لنا أسلافنا العظام أمثال القشيري ، والغزالي ، والجويني وغيرهم ، لقد كانت لهم رؤى أسبق من زمانهم ، وهى فقط بحاجة إلى باحث متعمق ، يستطيع أن يلج إلى هذا المنجم ، ويستخرج الجواهر المغطاة .

صحيح .. أن المصطلحات الحديثة لم تكن لديهم ، وإنما كان لديهم كلمات أخرى .. تعطى ذات المفاهيم ، بل لا أبالغ إذا قلت : كانت أبعد وأدق وأعمق وأقرب إلى روح الإسلام وجوهره .

وليس هذا بمستغرب على تراث نشأ وترعرع فى كنف كتاب الله الكريم وستة نبيه العظيم ، ولكل منهما عظمتة فى النفاذ إلى أعماق الكون : بحاره وأرضه وسماؤه ، وإلى أعماق الإنسان : نفسه وخلجاته وعقله وآفاته .. وأدوائه ..

ورائدنا فى هذه الرسالة .. الاختصار وحسن الاختيار للدلالة على ما نقول - يتوفيق من الله سبحانه .

* * *

القشيري وعلم الكلام

ذكرنا من قبل أن القشيري كان من أكابر الأشاعرة في عصره ، وذكرنا أنه تعرض في سبيل ذلك لأعظم محنة ألمت به في حياته .

وتبرز أهمية قصدنا إلى توضيح هذا الجانب في ثقافته حين نستمع منه إلى دفاع عن التصوف وأهله ، حيث يقول مثلاً :
« إن عقائد مشايخ الصوفية توافق أقاويل أهل الحق في مسائل الأصول » (الرسالة القشيرية ص ٥) .

ويقول : « إنهم بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد ، صانوا بها عقائدهم عن البدع ، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل ... »
(الرسالة : ص ٣) .

وأنت تلحظ أثر علم الكلام ، وهو ينعكس على الموضوعات الصوفية بأضواء كاشفة مقنعة ، (راجع مثلاً كلامه في موضوع الولاية وموضوع الكرامة ، ومبحث رؤية الله ، وربطه موضوع الإرادة - وهو صميم الجهد الصوفي - بموضوع الحرية

الإنسانية التى نعرف أنها شغلت مساحة كبيرة فى علم الكلام بين الأشاعرة والمعتزلة ... وهكذا .

ومن تحصيل الحاصل أن نصفه بأنه خصم لأهل الاعتزال ، فهو أشعري صلب ، يقول مثلاً : « كان الأشعري على المعتزلة والروافض والمبتدعين من أهل القبلة الخارجين من الملة سيفاً مسلولاً » ويقارن بين المعتزلة « الذين حاولوا أن ينزهوا الله من حيث العقل فأخطأوا ، وبين الصوفية الذين نزهوه من حيث العلم فأصابوا » وتلك عبارة قد نتوقف عندها بعد قليل لنكشف ما يكون فيها من بعض الغموض .

ونقتطف هنا عبارة أكثر تفصيلاً ، جاءت فى كتابه « شكاية أهل السنة » : « زعم المعتزلة أنه (يجب) على الله أن يثيب المطيع ، (ويجب) عليه أن يعذب العاصي ، فطاعة المطيعين علة فى استحقاقهم ثوابه ، وزلات العاصين علة استحقاقهم عقابه ، ولكن أهل السُّنة من الأشاعرة وكل من خالف المعتزلة يرون أنه سبحانه (لا يجب) عليه شيء ، لأن الخلق خلقه والمملك ملكه والحكم حكمه ، وله أن يتصرف فى العباد بما يشاء ، وله أن يوصل الألم أو اللذة إلى من يشاء » .

* * *

وفى مسألة الذات والصفات الإلهية يثبت القشيري لله سبحانه

صفات الجلال من قدرة وعلم وإرادة وحياة وبقاء وسمع وبصر وكلام .

فهو بهذا يدحض مقولة المعتزلة بنفى الصفات خوفاً من التركيب ، أو إضافة الزيادة ونحو ذلك مما هو معروف فى عرف المعتزلة الذين يصفون أنفسهم لهذا بأنهم : أهل التوحيد !! وللقشبرى فى كتابه : « التعبير فى التذكير » تفرقة جميلة استفاد منها الغزالى بين اسم الذات : وهو الله أو الرحمن (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن .. -) .

وبين صفات الذات ، وهى التى قامت بها الذات منذ القدم - أى قبل نشأة المخلوقين والمخلوقات مثل السميع والبصير والمتكلم ، وبين صفات الفعل : وهى تلك الصفات التى تعمل فى الكون مثل « الوهاب والرزاق والمحيب والمميت والقباض والباسط » الخ .

ولنا عودة مع كتاب التعبير فى موضع قادم إن شاء الله .

وينفى القشبرى كل دعاوى التشبيه والتمثيل فى المواضع التى يتمسك فيها بعض الحرفيين تمسكاً مهلكاً مثل و ﴿ جاء ربك ﴾ ، ومثل (اليد) و (العين) و (الوجه) .. ونحو ذلك فيلجأ كالأشاعرة إلى التأويل الذى تتسع له طبيعة اللغة العربية فى (المجاز) .

فيصبح المعنى جاء أمر بك ، واليد بمعنى النعمة تارةً. ومعنى القدرة تارةً أخرى ، والعين بمعنى الرعاية والحراسة ، والوجه بمعنى صفة الله « وفى بقاء الوجه بقاء الذات ، لأن الصفة لا تقوم بنفسها ، وفائدة تخصيص الوجه بالذكر أن ما عداه يُعرف بالعقل ، أما الوجه فلا يعلم بالعقل ، وإنما يعرف بالنقل والأخبار » { لطائف الإشارات فى الآيات التى ورد فيها لفظ (الوجه) } وفى قوله تعالى : ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ خطاب لهم على قدر فهمهم وإلا (فأى خطر للأكوان عند صفاته ، جلّ قدره عن التعزز بكرسى أو بعرش) (لطائف الإشارات تفسير آية الكرسي) .

* * *

وتناول الشيخ قضية الحرية الإنسانية ، أو بكلمات أخرى هل الإنسان مُسَيَّرٌ أم مخيَّر ؟

ومن المعروف أن المعتزلة قد منحوا الإنسان حرية كاملة ، على أساس أن الحرية مدار المحاسبة فى الآخرة ، ولكى يكون الله (عادلاً) فى حسابه يجب أن يكون العبد حراً فى تصرفاته ، ولهذا سمّوا أنفسهم أهل العدل .

أما الأشاعرة - والقشيري منهم - فمع إيمانه بأن للعبد اختياراً ، إلا أنه يتم بفضل الله (بإلهام أو تعريف أو تيسير

أو هداية أو تمكين من قبل الله للعبد) .. وهذه كلمات
 اخترناها من مواضع شتى متفرقة في مصنفاته ، لكي نحدد
 الإطار الذى أدير داخله هذا الموضوع الحساس ، لأن الله
 صاحب الكون ، ولا يعقل أن يكون فى داخل هذا الكون من
 يملك حرية كاملة سواه ، وإلا تعدد الفاعلون فى داخل هذا
 الكون .. لا بد إذاً من أن نشعر بالتدخل الإلهى فى أفعالنا ..
 ولن يتدخل الله إلا بالخير .. وتدخله هو الخير .. فالله خير ،
 والعبد عبده ، ولن يختار له إلا ما هو أفضل وأقوم .. حتى
 لو ادعى الإنسان - نتيجة قصوره العقلى - أنه يفهم موقفه
 الحياتى .. فالخير قد يكون من الشر ، والحياة نفسها تدلنا
 على ذلك .. فكم من مرة نأسف لأن طائرة أو قطاراً أو سفينة
 قد غادرت قبل أن نصل إليها ، ثم نفاجأ بعد قليل بأنباء
 كارثة حلت بها !! فنشكر الله على المنع !!

والواقع أن القشيري قد وجد فى (التصوف) إتماماً لهذا
 التصور ؛ فظهر عنده ما يمكن أن نسميه (علم الكلام
 الصوفى) ، وسنشير إليه فى حديثنا عن تصوفه ، ونرجو
 القارئ أن يضم - إن شاء الله - محصول ما يقال فى
 التصوف فى هذه الجزئية إلى الموقف الكلامى ، ليعلم أن
 التصوف رافذ ثرى يأخذ من المعارف الخارجية ، ويعطيها
 أيضاً ، فهو مدد فياض .. عند من يتذوقون الحقائق !!

إننا نرى أن ربط الثواب والعقاب بفضل الله أقوم من ربط الثواب والعقاب بأى شىء آخر ؛ لأن قياس عمل الإنسان بالنسبة لله على عمل الإنسان بالنسبة للإنسان قياس خاطئ ؛ لأن الله سبحانه لن يعود عليه شىء من طاعة العبد ، فهو أسمى وأعظم ، ولن ينقصه شىء بمعصية العبد ، فهو أسمى وأعظم (إنما المحسن يحسن إلى نفسه والمسيء يسيء إلى نفسه) - هذا هو الأصل .

أولى أن يحال الأمر كله لله ثقة فى فضله وأملاً فى ألطافه .

* * *

رؤية الله

للقشيري آراء كلامية كثيرة جداً فى موضوعات مثل « الحسن والقيبح ، والخير والشر ، ومسألة خلق القرآن ، والرسول ، والشفاعة ، والشيطان ، والجنة والنار ، ونحو ذلك مما هو فى بطون كتبه المتخصصة فى هذا المجال ، ولكننا هنا نكتفى فى عجالة بعرض نماذج من ثقافته ، كى يقترب منه القارىء الذى لم يعرفه من قبل ، هذا فضلاً عن أننا نختار - عن عمد - موضوعات كلامية لها أصداء فى علوم الصوفية ، فالتصوف هو رائدنا فى هذه الرسالة الآن .

ولن أراد التوسع أن يرجع إلى أصول مصنفات القشيري
التي أعاننا الله - سبحانه - على تحقيقها وشرحها والتعليق
عليها منذ أكثر من ربع قرن .

نعود إلى موضوعنا « رؤية الله » ، ومن البدهى أن تحتل
هذه الفكرة حيزاً ضخماً من اهتمام القشيري متكلماً وصوفياً .
وهنا تجدر الإشارة إلى أن الرجل يميز بين اصطلاحين :
المشاهدة والمعانية ، فمن منظور صوفي المشاهدة الرؤية
بالبصيرة ، والمعانية هي الرؤية بالبصر - والشيخ لا يجيز هذه
الأخيرة في الحياة الدنيا - وإن كان ينقل في « رسالته » نصاً
عن أستاذه ابن فورك : « أن الأشعري قال بذلك في كتاب
الرؤية الكبير » .

ولكن القشيري لا يتحمس لذلك ، وليس أدلّ على ذلك من
قوله في تفسير بسملة سورة البروج : « بسم الله ، اسم لم يَرَهُ
بَصَرٌ إلا واحد ، وهو أيضاً مُخْتَلَفٌ فيه » وغير خافٍ أنه
يقصد المصطفى صلوات الله عليه وسلم .

أما رؤية الله في الآخرة فالقشيري يُقرها ، ويتحمس لها ،
كما فعل الإمام الشافعي .

في ضوء ذلك نستطيع أن نفهم عبارة للقشيري مثل « اليوم

سراً بسر من حيث المشاهدة ، وغداً جهراً بجهراً من حيث
المعاينة » .

وسنرى أن « السر » فى تقسيم القشيري للملكات الصوفية
هو موضع المشاهدة فى المعراج الروحى .

وهكذا يمكنك أن تفهم تفسيره عند ﴿ وجوه يومئذ ناضرة
إلى ربها ناظرة ﴾ ﴿ والحسنى وزيادة ﴾ الحسنى هى الجنة
والزيادة هى الرؤية .

وهى على العموم رؤية « لا تحتاج إلى حدقة عين أو تقليب
مقلة فى جهة بل يرونها بلا كيفية » فالأمر جارٍ فى الحياة
الأخرى .

ولسنا نخفى إعجابنا باتجاه القشيري فى هذا المجال : فهو
قد حسم كثيراً من الأمور ، وأبان للأدعياء والمغرضين والجهلة
حدود الكشف ، والمعارف العليا .. مهما تصاعد الغبد فى
معراج العرفان !! ، وهكذا يتضح اللقاء بين مباحث علم
الكلام وأخص مسائل التصوف - فهذا هو الهدف البعيد .

* * *

القشيري والتفسير

اتصل القشيري بالتفسير على مرحلتين :

١ - مرحلة ما قبل التصوف ، وثمرتها « التيسير في التفسير » .

٢ - مرحلة التصوف ، وثمرتها تفسيره الإشاري الذائع الصيت : لطائف الإشارات . وكان من حسن الحظ أن نقوم بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه ، ويقع في ستة أجزاء كبيرة ، أما آخر طبعة له (الهيئة العامة للكتاب) فجعلته في ثلاث مجلدات كل منها جزءان كبيران .

أما « التيسير » فقد وقع لنا منه أكبر قدر في الحجم يعرفه الناس ، إذ عثرنا عليه في مكتبة شرق شناسى بطشقند ، وهو الجزء الخامس من الكتاب ، ثم قمنا بإجراءات تجميعه (أى الميكروفلم) بحيث أعدناه للقراءة ومن ثم للنشر .

ويهمنا هنا أن نشير إلى أنه تفسير تقليدى ، نحا فيه المفسر منحى المفسرين الذين يبذلون الجهد فى خدمة النص القرآنى من حيث اللغة والاشتقاق والنحو والتصريف ، والقراءات وأسباب النزول .. الخ .

وهو لا ينسى أن يذكر عدد آيات السورة وعدد حروفها ويبين - إن وجد - اختلاف أماكن نزول آية عما سبقها أو لحقها .

ومع أن « التيسير » بهذا الوصف تعبير عن مرحلة عمرية وثقافية إلا أنه لا يخلو من مواقف صوفية ، وهى وإن كانت قليلة إلا أنها تعطى انطباعاً كافياً بميل غريزى نحو هذا الجانب فى المستقبل .

وهناك شىء آخر .. إننا نلمح هنا انتماء القشبرى إلى مدرسة ابن عباس فى التفسير ؛ فمن السهل أن نعثر على اسمه فى مواضع شتى ، ومن السهل أيضاً أن نعثر على أسماء تلاميذ هذه المدرسة أمثال مقاتل ، والحسن ، وزيد بن أسلم ومجاهد وقتادة .. وغيرهم .

ومع احترامنا الشديد لابن عباس فهو « حبر الأمة » ، وهو الذى دعا له النبى صلوات الله عليه وسلامه بقوله : « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » ، وهو الذى وصفه عمر بن الخطاب بقوله : « أعلم أمة محمد بما نزل على محمد » .. ومع كل هذا إلا أننا نعرف من واقع تجارب عديدة أن بعض تلاميذ مدرسته أو الذين ألصقوا أسانيدهم به ليسوا فى بعض الأحيان عند المستوى المطلوب ، وأخذ عليهم النقد مأخذ كثيرة أقلها احتفالهم بالإسرائيليات والنصرانيات فى التفسير بدون داع .

وقد أخذنا فى بحث مستفيض على القشيري وقوعه -
 خصوصاً فى باب القصص - تحت تأثير هذا الرافد الثقافى ،
 وهذا إن تجلّى بصفة واضحة فى « التيسير » إلا أنه تخفف
 منه كثيراً جداً فى « اللطائف » .

● لطائف الإشارات : فى رأينا أن هذا هو أهم آثار
 القشيري ؛ ولهذا قلنا ذات مرة إن « الرسالة القشيرية »
 ظلمت الرجل حين شهرته ، وأبقت اسمه وقفاً عليها حتى لم
 يكد كثير من الناس عبر العصور يعرفه إلا من خلالها وحدها ،
 وهى - وإن استحققت كل هذا الاحتفال - إلا أنها ليست
 مطلقاً أهم من لطائف الإشارات ، لأن الرسالة مثال للتأليف
 المنبنى على جمع الأسانيد ، وفيها تراجم لبعض الشيوخ ،
 وفيها شرح لبعض الألفاظ الاصطلاحية فى التصوف .. وهذه
 كلها يمكن أن يسد مسدها مطولات فى كل هذه المجالات مثل
 كتب الطبقات للسلمى وللشعرانى وللمناوى وغيرهم . والتعرف
 للكلاباذى ، وقوت القلوب للمكّى ، والإحياء لأبى حامد
 الغزالى .. واللمع للسراج .. إلخ .

أمّا اللطائف فهو مثال للتأليف الابتكارى ، فهو من هذه
 الناحية ينم عن عبقريته الذاتية ، ونظير « اللطائف » نادر جداً .
 فإذا علمنا أن اللطائف يفسر بسملة كل سورة فى القرآن

الكريم تفسيراً خاصاً ، يتعلق بالسياق العام للسورة - وتلك مسألة اكتشفناها بعد تجربة طويلة امتدت سنوات ، وأضفنا أنه يفسر القرآن بطريق الإشارة لا بطريق العبارة ، بمعنى أنه يغترف من العلوم الصوفية والمعارف العليا ما يحقق المرامى البعيدة من الآية وأجباناً من اللفظة .

والإشارة عند الشيخ لا تنطلق من فراغ .. بل هى أولاً مسبوقة باستعداد سلوكى ، يتصل بالتطهر والتنسك وبكل ما يليق بالإقبال على كتاب الله المجيد .. وهى فيوضات تنثال وكأنها مياه تتفجر عنها ينابيع لا تكاد تنفد ..

ولا أبالغ إذا قلت إننى طوال اشتغالى بهذا الكتاب مدة عشر سنوات كوامل اقتطعتها من عمرى ومن بصرى ومن عافيتى لم أشعر بالكلال أو الملل ، إنما كنت أعيش الرجل كأنى مشمول بكراماته .. وليس هذا مجافاة - كما قد يظن البعض - للروح الأكاديمية التى لا تعرف إلا المشاعر الموضوعية الجافة .. ولكن هكذا كانت طبيعة الموضوع ، ومجلس الشيخ ، وحسن التأدب عليه .

إنه تفسير يرتبط بالمجاهدات والمكابدات والمذاقات ، وكلها ناتجة أو مؤدية إلى صفاء البصيرة ، ثم إلى ضرورة الارتباط بالعمل بما تطمح إليه الآيات الكريمة ... من بعيد .

إن هذا التفسير خاص أو قُلْ إنه بلغة حديثة « أرستقراطي »
لأنه للطبقة الخاصة أو الخاصة الخاصة ، ونظلم هذا التفسير لو
كلفنا فرداً عادياً بقراءة متونه واستكشاف نواياه ، لأنه يحتاج
إلى مواهب من نوع معين ، والشيخ يعترف بذلك .. فينسيبه -
لا لفضل فيه - بل للاجتماع الإلهي ، فهو مضمون به على غير
أهله سواء من البداية أو بالوسيلة ثم بالغاية .

ومن عجب .. أن يلتقى التفسير بعد أن قمنا بتحقيقه ونشره
والتعليق عليه منذ ربع قرن نجاحاً منقطع النظير ، فيقبل الناس
عليه إقبالاً لافتاً .. إنه حقاً شيء ثمين ! .

أو كما يقول بروكلمان : « إنه سفر على جانب كبير من
الأهمية لولا أنه مبثّر في كل أرجاء المعمورة » .

وأعترف أن الفضل لله وحده ، ولكرامة الشيخ في
اصطباري على جمعه والجري وراء نسخه المبعثرة .. والحمد لله
أولاً وآخرأ .

* * *

إن أبرز ما يتجلّى فيه التفسير الإشاري في هذا الكتاب -
في تقديرنا هو عند المواضع الآتية :
١ - البسملة في أوائل السور .

٢ - الحروف المقطعة التى هى بطبعها إشارة أكثر منها
عبارة .

٣ - الأحكام التشريعية ، وكيف يستنبط منها للصوفية
أنماطاً خاصة فى التشدد لأنهم أهل خصوص ، ولا شغل لهم
إلا بالله سبحانه .

٤ - أسباب النزول والقصص .

٥ - خلق الإنسان ، وما يتصل بالإنسان من قضايا تمس
تركيبه الثنائى من جسد وروح ، وتمس ملكاته فى المعرفة ،
وتمس عاطفته ووجدانه .. إلخ .

والقارىء ينتظر منا أن نضرب أمثلة - وهذا حقّه .. ولكننا
سنتأذن فى التقليل من ذلك قدر الإمكان لأن الغرض من هذه
الرسالة شىء آخر .

خذ مثلاً تفسيره لبسملة سورة الحجر : « سقطت ألف
الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة ، وزيد فى
شكل الباء من بسم الله وليس لزيادتها علة ، ليعلم أن
الإثبات والإسقاط بلا علة ، فهو سبحانه لم يقبل من قبل
لاستحقاق علة ، ولا رد من رد لاستيجاب علة (تذكر الوجوب
عند المعتزلة) . فإن قيل العلة فى إسقاط الألف كثرة

الاستعمال فى كتابة بسم الله أشكل بأن الباء من بسم الله زيد فى كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة . فإن قيل العلة فى زيادة شكل الباء بركة أفضالها بسم الله أشكل بحذف ألف الوصل لأن الاتصال موجود .

فلم يبق إلا أن الإثبات والنفى ليس لهما علة : « يرفع من يشاء ويمنع من يشاء » .

قد يقال إن التعليقات هنا مسائل فى قواعد الكتابة والإملاء .. ولكن ليس هذا هو المهم .. إنما المهم هو التعريض بالفكر الاعتزالى من ناحية وتنبيه الصوفية إلى أنه سبحانه يقبل أو يردّ بمشيئته واجتباؤه من ناحية ثانية .. فلا اعتراض فى كل الأحوال .

ومن ناحية ثالثة .. هو يريد أن يثبت أصلاً كلامياً فى مذهب الأشاعرة ، وهو (أن حكم الله لا يُعَلَّل) ولا ينبغى إخضاعه للعقل الإنسانى القاصر .

ومن ناحية أخيرة .. وهى فى نظرنا شيقة جداً : أنك لو تعمقت داخل السورة لأدهشك ما أدهشنى أن السورة تتحدث عن رفع الخلق وخفضهم بلا علة - كما فى قصة آدم والملائكة ، فعندما اندهش الملائكة عند قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبِّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ﴾ فأظهر سترهم لأنهم نظروا

إلى القوالب ، ولكن الاعتبار بالمعانى التى يودعها ، فالملائكة استصغروا قدره وحاله (لأنه من طين) ، وتعجبوا من أمره لهم بالسجود ، فكشف لهم شظية مما اختصهم ، فسجدوا للأمر . وكذا حال من ادعى الخيرية .

أما إبليس فلم يفتن للمشيئة الإلهية ، وبقي على عناده متأبياً أن يسجد لمخلوق من صلصال .. إنه لا يعرف أن مشيئة الله تعالى تجرى على غير علة .

وفى قصة مريم يتوقف عند : ﴿ وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ ونلخص رأيه فى سبب فعل الأمر ﴿ هزى ﴾ على النحو التالى : حينما كانت مريم متجردة من كل العلاقات ، ومنقطعة إلى التعبد .. كان كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً .

أمّا الآن فهى (مأمورة) بالسعى للرزق ، لأنها مقبلة على علاقة اجتماعية ، فلسوف يكون لها ولد ، ليعلم أننا مأمورون بالسعى لا بالتواكل ، لأننا مسئولون عن عيالنا ، وبرغم ما هى فيه من ضعف .. ضعف الأنثى الفطرى ، وضعف حال الحمل قبيل الوضع ، والضعف الناجم عن الخوف ، فهى ليست من قوم سوء ، وليس لها زوج ، وتخاف أن تلوكها الألسنة بفاحش الاتهام ، ولا تعرف أين تستقر ، وأين تلد وكيف ستلد ..

وهى وحيدة منفردة دون معين .. (فأمرت) بأن تهز جذع النخلة !!! ليتساقط عليها الرطب الكثير ..

لتعلم أن الذى قدر على منحها كل هذه القوة رغم كل هذا الضعف ، سيرزقها الولد على نحو غير مألوف وغير عادى .. أى أن ذلك كان مقدمة لوضع غريب فريد !! فقدرة الله غالبية فى كل الأحوال .

ووجد القشبرى فى مسألة (خلق الإنسان) فرصاً سانحة لإبداء رأيه فى بيان قدر الانسان بالنسبة لساتر المخلوقات ، وقدره حين يقع عليه الاختيار الإلهى فتتمو فى قلبه هذه المحبة الفائقة الشريفة التى تنقله من أحواله الخسيسة إلى المنازل النفيسة .. استمع إليه وهو يقول عند : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ : (مهين أى حقير ذكّرهم أصل خلقتهم لئلا يُعجبوا بأحوالهم ؛ فإنه لا جنس من المخلوقات والمخلوقين أشد دعوى من بنى آدم ، ومن الواجب أن يتفكر الإنسان فى أصله ، كان نطفة وفى انتهائه جيفة ، وفى وسائط حاله كنيف فى قميص ، فبالحرى ألا يُدَلَّ ولا يفخر - وكان أصله قطرة ثم صورّه فأحسن صورته .. فهو قادر على أن يُرقيك من الأحوال الخسيسة إلى المنازل الشريفة النفيسة) .

وكم أبصرت من حُسنٍ ولكن عليك من الورى وقع اختيار

ويقول تعالى : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ ويقول : ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ ويقول : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ .

وعند ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ يرى فى ذلك تفضيلاً للإنسان على الملاك إذ منح صفة من صفاته ، وهى (العلم) ، بينما وصف الملائكة بالعبادة والتسبيح والطاعة (والطاعة سمة العبيد) فليلاحظ القارئ هذه اللفتة الذكية البعيدة !

وفى لاجاة إبليس وحجيته بأنه من نار ، بينما الإنسان من طين ، يقول (ادعى اللعين الخيرية مع أن الماء يطفىء النار فتصبح رماداً ولا يجىء منه شيء ، بينما الطين (أى الإنسان) ينجبر كسره إذا وقع عليه الماء .. فلهذا حين نزل ماء العناية على آدم قال تعالى : ﴿ ثم اجتباه ربه ﴾ بينما انطفأ اللعين إلى يوم القيامة ﴾ .

* * *

القشيري المحدث

عاش القشيري فى نيسابور ، وهى من أغنى بلدان العالم الإسلامى فى الثقافة الحديثية ، وكفى أنها أنجبت مسلماً بن الحجاج صاحب « الصحيح » الذى يُفضله بعض النقاد على البخارى .

وعندما وصل القشيري إلى الثلاثين من عمره تبوأ رئاسة مجلس الحديث في مسجد المطرز ، وفي المتقى كانت قد سبقته شهرته إلى بلدان المشرق ؛ فكانت الناس تهرع لسماع درسه في الحديث ، وتخرج عليه كثيرون ، منهم الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد ، وابنه عبد المنعم ، وحفيده هبة الله عبد الرحمن ، والفراوى ، والشحامى .. وغيرهم .

واهتم القشيري بالحديث فى كتابين هما « الرسالة » و« المعراج » ، ويقول بعض من كتب سيرته إن له كتاباً مفقوداً اسمه « الأربعون حديثاً » .

فى « الرسالة » وصلت الأحاديث إلى المائة ، وكثير منها مروى بإسناده ، وهى فى منهج تأليف الكتاب تأتى بعد الآية أو الآيات التى وردت فيها « اللفظة » عنوان الباب مثل كلمة « الذكر » أو « التوكل » أو « الرضا » أو « التوبة » ، فكأنما يريد من بعيد أن يقول لنا إن كل صغيرة وكبيرة فى علوم الصوفية مستمد من القرآن والسنة ، وأنهم لا يستحدثون جديداً يا من تشككون فى الأصول الإسلامية للتصوف ؟ !

وآية ذلك أن الاهتمام بالحديث يبلغ مداه حين لا يجد الشيخ « لفظة » الباب غير واردة فى القرآن الكريم مثل لفظة « الزهد » ؛ فإنها وردت فى القرآن ولكن على معنى غير متحمل لرائحة

التصوف « وكانوا فيه من الزاهدين » ، فعندئذ يهزج القشيري إلى الحديث الشريف ، فيروى مجموعة منه حاملة ربح التصوف من قريب ومن بعيد ، على نحو يقنعك بأصل إسلامي عريق لمادة الزهد لغةً واصطلاحاً .

وأحياناً تأتي الأحاديث في « الرسالة » حاملةً المعاني المتشعبة لأطراف الموضوع الواحد ، فمثلاً باب « الفتوة في الرسالة » هناك حديث يقرب معناها ، وهناك حديث يتحدث عن « البذل » ، وهناك حديث يتحدث عن « المروءة » وعن « الإيثار » . وكلها معانٍ تتجمع في موضوع الفتوة ، فهي مجمع كل هذه الفضائل ، وهو يستعين بالحديث لتدعيم آرائه في التصوف ، مثل موقفه من « الرؤيا » ، وموقفه من « الصقاء » الذي يمكن أن تشتق منه كلمة التصوف .

أمّا في كتاب « المعراج » فالأحاديث تكون ثلث الكتاب فيما بين صفحتي ٢٧ و صفحة ٦٤ .

والسبب في ذلك في رأينا أنه يعلم أن الحديث - وليس القرآن - هو المسئول عن تفاصيل قصة الإسراء والمعراج بغض النظر عن فكرة الحديث الصحيح أو الموضوع .. فالأحاديث أتخمت القصة .. أما القرآن الكريم فلا يتجاوز الكلام عنها موضعاً في سورة الإسراء ، وفي سورة النجم ، ولو اقتصر الأمر

على القرآن الكريم فقط لما تجاوزت الإطار المحدود الذي أريد لها ..

وليس معنى هذا أننا نقول إن القشيري قد انساق وراء الحديث في « المعراج » انسياقاً جارفاً .. لا .. بل هو مستجيب لمقتضيات الموضوع على نحو معقول ، وآية ذلك أن رواياته لم تخلُ من نقده أحياناً ، وبخاصة في الإسناد أو المتن ، فيقول مثلاً : « وهذا لفظ همّام عن قتاده ، وحديث سعيد بن أبي عروبة بنحوه ، ولكن ليس فيه ذكر الحسن ، وقال بمكان (قد خبرت الناس) ، قال : (بلوت) ، وزاد فيه (عن عبادى) ، و(جعلت كل حسنة عشر أمثالها) ، وليس في حديث همّام ذكرُ الجارود .

ويقول عن : « رأيت ربي ، وفي رجليه نعلان من ذهب » : إن هذا من مناكير الأخبار !! ، فهذه الحاسة النقدية المعروفة في علم مصطلح الحديث .

* * *

القشيري الفقيه

عاش القشيري في ظل دولتين ، غلبَ عليهما المذهب الشافعي : الدولة الغزنوية ، والسلجوقية ، بل كان المذهب الشافعي أحد المقررات الدراسية الأساسية في المدارس النظامية .

القشيري وأبناؤه الستة من كبار الشافعية ، وقد ترجم لهم السبكي في « طبقاته » .

ويحتج القشيري بوجهة نظر الشافعي في كثير من مسائل التصوف - حينما يختلف الرأي حولها مثل موضوع « السماع » ، فيقول : « كان الشافعي رحمه الله لا يحرمه - وإن كان يجعله في العوام مكروها - حتى لو احترف الغناء ، أو اتصف على الدوام بسماعه على وجه التلهي ، ولا يلحقه بالمحرمات » (الرسالة القشيرية : ص ١٦٦) .

ويحتج بأقوال أئمة الشافعية في هذا الخصوص في موضع أكثر تفصيلاً ، فيقول : « سمعت الأستاذ أبا سهل الصعلوكي - وهو أحد فقهاء الطبقة الثانية ومن كبار الأئمة في خراسان - يقول : المستمع بين استتار وتحجّل ، فالاستتار يوجب التلهيب ، والتجلى يورث الترويح . الاستتار تتولد منه حركات المريدين ، وهو محل الضعف والعجز ، والتجلى يتولد منه سكون الواصلين - وهو محل الاستقامة والتمكين .. وتلك صفة الحضرة .. وليس فيها إلا الزبول تحت موارد الهيبة » الرسالة : ص ١٦٩ .

وهو لا ينسى فى أحيان كثيرة أن يشير إلى المذهب الفقهي الذى ينتمى إليه الشيوخ ، فيقول مثلاً (كان الجنيد على مذهب أبى ثور ، ورويم على مذهب أبى داود ، وداود الطائى يواظب على دروس أبى حنيفة ، والشبلى على مذهب مالك) تراجم الشيوخ فى الرسالة .

ونكتشف أنه كانت تقع أحيانا بعض الاحتكاكات الاستفزازية من الفقهاء تجاه الصوفية ، فنشعر من رواية القشيري تحيزه لجانب الصوفية (لأن الله إذا اختار ولياً علّمه) ، مثال ذلك (سأل بعضُ الفقهاء الشبلىُ اختباراً له فى العلم : « يا أبا بكر : كم فى خمسٍ من الإبل ؟ » فأجاب الشبلى : « أمّا الواجب فشاة ، وأمّا عندى فكلها لله » ، فقال له : « وما دليلك ؟ » قال :

خرج أبو بكر عن ماله كله لله ورسوله ، فمن خرج عن ماله كله فإمامه أبو بكر ، ومن خرج عن بعضه وترك بعضه فإمامه عمر ، ومن أعطى لله ومنع لله كان إمامه عثمان ، ومن ترك الدنيا ، لأهلها فإمامه على .. وكل علم لا يدل على ترك الدنيا فليس بعلمها « الفتوحات الإلهية : ص ٨٨ .

والحاح القشيري على إثبات مقدرة الصوفية على إصدار الأحكام الفقهية يعود - فى تقديرنا - إلى إثبات ما بين

الشريعة والتصرف من صلات وثيقة ، وثانياً إلي أن الصوفية ليسوا من طبقة الجهلاء كما يحلو للبعض أن ينعتهم ، وثالثاً أنهم وإن سلكوا مسالك الأحوال والأذواق والمواجيد ، فلم ينأوا عن اتباع الشرع عن فهم ووعى وإلا (حُرِّمُوا الوصول لتضييعهم الأصول) « الرسالة : ص ١٩٧ » .

وهو من بعيد ينبه المريدين إلى أن يأخذوا معارفهم من الشيوخ ، وأن يثقوا فى مشورتهم ، وإلا احتاج (إلى التطفل على من هو خارج عن هذه الطائفة) ، وهو يريد لهم أن يكتفوا بما فى بيئتهم ، ففيها كل ما يحقق المطلوب .

هذا ، وسنسوق عند الحديث عن « تصوفه » نماذج من تشدداته فى تناول مسائل الفقه بالنسبة للصوفية ، على أساس أن الشريعة للكافة ، بينما حينما تصل إلى قوم لا شغل لهم إلا بالله وفى الله ، فالأمر بحاجة إلى جانب من التبشدد ، وسنضرب لذلك أمثلة كافية إن شاء الله وبخاصة فى موضوع « الترخص » .

* * *

تَصَوُّفُهُ

إهداء

الصفحات القادمة مهداة إلى روح أستاذنا المرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمي إحياءً لذكراه العطرة واعترافاً بفضله ، وأظن أن أخى الكريم الدكتور الجليل أبو الوفاء التفتازاني - وهو مثلي أحد تلاميذه المقربين - يوافق على ذلك اقتداء بما كان يفعل التلاميذ في عهد سلفنا الصالح لتوقير شيوخهم .

أ . بسيوني

يحدثنا القشيري في مواضع شتى من مصنفاته عن تجربته الشخصية في التصوف ، وسنحاول أن نستجمع من كل ذلك ما يكفي لتكوين الإطار وملامح الصورة .

وقد يبدو الأمر سهلاً عند بعض الناس ، فالكتب كثيرة ، والكلام عن التصوف يكاد يكون لُحمة هذه الكتب وسداها .. ولكننا نميز بين القشيري الباحث الصوفي - وبين القشيري الذائق . صحيح إن شخصية المرء لا تتجزأ ، وليس كل ما يسجله نقولاً عن الشيخ ، ولكن يبقى في الميزان العلمى الدقيق فرق بين من يكتب عن وعي للصوفية ، وبين ما ينطلق عنه وهو في حالى الفناء والشهود من كلمات ومعارف ..

بدايةً يحدثنا القشيري عن (طريقته) فيقول إنه أخذ عن الدقاق ، والدقاق عن النصرا باذى ، وهذا عن الشبلى ، وهذا عن الجنيد ، وهذا عن السرى عن معروف عن داود الطائى ، وداود لقي التابعين (الرسالة : ص ١٤٧) .

فإذا ما اقتربنا من القشيري الشاب (المريد) نجد - كما قلنا من قبل - تقديرًا للشيخ ، وأنه كان يعتبره رمز القوة العليا الجديرة بالانضواء تحت تأثيرها ، ونعتقد أنه كتب ما كتب عن علاقة المريد بالشيخ والشيخ بالمريد بهذه الطريقة الرائعة التى تنال الإعجاب إلا من واقع تجربته مع الدقاق .

حُذُ مثلاً هذا النص الذي يكشف لنا عما كان يشعر به كلما أقبل على مجلس الشيخ : « لم أدخل على الأستاذ أبى على - رحمه الله - فى وقت بدايتى إلا صائماً ، وكنت أغتسل قبله ، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة ، فأرجع من الباب احتشاماً من أن أدخل عليه ، فإذا تجاسرتُ مرة ودخلت ، كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبنى شبه خدر حتى لو غرز فى إبرة مثلاً لعلى كنت لا أحس بها .

ثم إذا قعدت لواقعة وقعت لى ، لم أحتج أن أسأله بلسانى عن المسألة ، فكلما كنت أجلس كان يبتدىء بشرح واقعتى .

وغير مرة رأيت منه هذا عياناً . ولا أذكر أنى فى طول اختلافى إلى مجلسه ، ثم كونى معه بعد حصول الوصلة أن جرى فى قلبى ، أو خطر ببالى عليه قط - اعتراض ، إلى أن خرج - رحمه الله تعالى - من الدنيا » (الرسالة : ص ١٤٧) .

والقشيري المرید يتبع شيخه الدقاق فى حله وترحاله ، ويرتاض رياضته ، ويتقفر القيافى فى صحبته ، ويخرجان معاً فى أسفار بعيدة ، هى فى عرف الصوفية وسيلة من وسائل التهذيب البدنى والخلقى ، وفرصة للعزلة ومحاسبة النفس والتوكل واحتمال البلاء ، ومن النصوص التى تحدث فيها القشيري عن شىء من ذلك : « كنت مدة كون الشيخ - رحمه

الله - فى نيسابور أخدمه ، وأواظب على القراءة فى مجلسه ،
 فرأيتة يوماً فى البادية ، تطهر ونسى قممته كانت بيده ،
 فحملتها فلما عاد إلى رحله ، وضعتها عنده ، فقال : « جزاك
 الله خيراً ، حيث حملت هذا » ثم نظر إلى طويلاً كأنه لم يرني
 من قبل .. وقال : « رأيتك مرة !! مَنْ أنت ؟ » فقلت :
 « المستغاث بالله تعالى .. صحبتك مدة ، وخرجت عن
 مسكنى ومالى بسببك ، وتقطعت فى المفازة بك ، والساعة
 تقول لى : رأيتك مرة !! ؟ » (الرسالة : ص ٤٠) .

وفى الحياة العادية لا تحوّل النزعة الصوفية بين القشيري
 وبين القيام بعمل من الأعمال ، فهو يشتغل بالتدريس فى
 نيسابور وبغداد ومرو وخسّا .. وغيرها ، ولكن لا يتكالب
 على هذه الأعمال قصد المال أو الخطوة ، وإنما لمجرد مسئولياته
 الأسرية (راجع ما قلناه فى تفسيره الإشارى لقصة مريم وجذع
 النخلة والأمر بالسعى على الرزق) .

وهو يضع حداً فاصلاً لهذا الأمر ، فيحذر قائلاً : « العالم
 إذا ارتفق بأموال الناس عوضاً عما يعلمهم ، زالت بركات
 علمه ، ولم يطب فى طريق الزهد مطعمه » لطائف الإشارات
 ذلك « لأن العلماء ورثة الأنبياء فسبيلهم التوقى عن التدنس
 بالأطماح والأكل بالدين ؛ فإنه مضر بالإيمان » .

ويمكن أن نتذكر فى المقابل صورة مناقضة فى عصر القشبرى ،
تجلت فى مصائر الكثيرين من الوعاظ والقصاص والمحدثين
الأدعياء الذين أنجرفوا فى احتراف إرضاء العامة ، واستجلاب
رضاهم ، واكتساب الشهرة ، والزلفى من السلطان .. إلى غير
ذلك من التدنى فى تيارات الطمع .. الذى يدعو إلى الاحتقار .

وفى الحياة العادية لا تفرض عليه النزعة الصوفية اختطاطاً
لسبيل يجافى روح الإسلام ، فهو يتزوج ، ويكون أسرة ،
وينجب الأبناء ، ولكن حينما وقعت به المحنة لم يحن رأسه
للظروف الخاصة بل أثر الاكتواء فى سبيل المبادئ السامية
التي يؤمن بها ، واحتمل ما احتمل بثقة الصوفى وأمله فى
ربه ، وفى انكشاف البلاء والغمة عن الخير كل الخير .. لأن
الله - سبحانه - هو الخير ولا يأتى منه إلا الخير ، ولم يكتف
بذلك بل ألف أشد كتبه جرأة وهو « شكاية أهل السنة بحكاية
ما نالهم من المحنة » قاذفاً به فى وجه السلطان ورجال
السلطان .. وليكن ما يكون .

هذه الشجاعة فى نظرنا آية صوفيته الرائعة ؛ لأن التصوف
ليس عبارات جوفاء ، تلقى فى الهواء .. إنما هو أساساً سلوك
رمنهج ، ولو تحلى العالم ببعض النزعة الصوفية الصادقة
نأش عصره مرفوع الهامة ، قوى الشكيمة ، نصير الحق ؛

لأنه يمثل ضمير الأمة فى الضراء قبل السراء ! ، فليس
الصوفى ممن يحنون الرءوس .

وتسمعه - لذلك - يقول لتلاميذه فى إحدى وصاياه : « إن
نبا بك موضعاً فالسفر لك واجب - وأرض الله واسعة » .

أو يقول : « كانت للرسل أزواج وذرية ، ولم يكن ذلك
قادحاً فى رسالتهم ، ومن اشتغل بالله فلا كثرة العيال ، ولا
تراكم الأشغال يؤثر فى حاله ، ولا يضره ذلك » اللطائف
« لأن كل مكان ينبت العز طيب » .

وربما تأثر القشيرى بتعاليم أهل الملامة أو الملامتية ^(١) من
بعيد . ومن المعروف تاريخياً أنه عاصر الجيل الثانى من أهل
هذه المدرسة النيسابورية المولد والمنشأ أمثال تلاميذ أبى حفص
الحداد ، وحمدون القصار ، وأبى عمرو اسماعيل بن فحيد
السلمى ، ولسنا نقصد أنه أثر عنه شىء يوجب الملامة فى
الظاهر إخفاء لأسرار الباطن ، بل إنه أخذ عنهم حب الانزواء ،
وكراهية الادعاء والتصدر والتعالم .. وكذلك بل كان
متواضعاً متخفياً .. أو كما يقولون بلغة العصر : البعد عن
الأضواء والشهرة والنجومية !! .

(١) الملامتية فرقة من الصوفية آثرت إخفاء حبها لله حتى لو تظاهرت بما يوجب
اللاملة ، وقد ظهرت فى نيسابور فى النصف الثانى من القرن الثالث .

والقشيري مشغول ليله ونهاره بالعلم والتعليم والتأليف والتدريس ، فلا عجب أن يكون منامه امتداداً ليقظته ، وأن تكون رؤاه انعكاساً لحياته الروحية ، بل هو يذهب إلى أن الرؤيا لون من الصفاء والكرامة ، ويحضرنا في هذا السياق حديث شهى^١ للأستاذ المرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمي في تحليله لمنامات ابن الفارض ، حيث يقول : « وليس من شك في أن الكثير من النفوس الصافية - وبعض النفوس التي ليس أصحابها من الصوفية رؤى وأحلاماً لها قيمتها الروحية ودلالاتها على مبلغ ما وصلت إليه هذه النفوس أو تلك من إبعاد عن المادية ، وإمعان في الروحانية .

.... وقد يتحقق في اليقظة ما يراه النائم في المنام تحقّقاً يكون كلياً في بعض الأحيان ، أو جزئياً في بعض الأحيان الأخرى ، فإن كانت الأولى وكان صاحب المنام من الصوفية فهو عندئذ من الأولياء الذين كشف عنهم الحجاب ، وانفتح لهم من علم الغيب كل باب » ابن الفارض ص ٩٤ .

فإذا مضينا نلتمس ذلك في سيرته ، نروى هنا ما يحكيه عنه السبكي في طبقاته : « أنه كان قد مرض له ولد ، فشق عليه ، فرأى الحق - سبحانه وتعالى - في المنام ، فشكا إليه ، فقال له الحق سبحانه : اجمع آيات الشفاء وقرأها عليه ، ثم

اكتبها فى إناء ، واجعل فيه مشرويا ، واسقه إياه . ففعل ذلك وعوفى الولد » .

أما فى أحلام اليقظة فتكفى قصة خطابه فى أرض الرسول ﷺ حيث رأى بعين البصيرة والفراسة غريمه وغريم أهل الحق الوزير الكندرى ، وهو يقطع ويمزق .. على نحو ما ذكرنا سابقاً ، وتلك لعمر الحق إحدى كراماته ..

أو هى كما يصفها أهل علم النفس المحدثون نوع من الـ Telepathy أو الرؤية من بعيد ، وأياً ما كانت فيه دلالة الصفاء والنقاء . (ولنتذكر قصة سيدنا عمر بن الخطاب وهو فى المدينة ، ينادى على قائد جيشه سارية فى نهاوند أن يلزم الجبل ...) .

ويكبر الشاب ، وتكبر تجربته ، وتنضج آراؤه فى التصوف نضجاً يستحق عليه إعجاب معاصريه وإعجاب لاحقيه ، وتنتشر تصانيفه بين الناس .. وآية ذلك كله أنه يحظى لدى المتحدثين عنه بأوصاف وألقاب وتعليقات لا تمنح إلا للأكابر مثل : رضى الله عنه ، أو نفعنا الله تعالى ببركته ، إنه « زين الإسلام » ، ويصفه السبكي قائلاً « كان فى مجالس التذكير والقعود بين المريدين ، وأسئلتهم عن الوقائع ، وخوضه فى الأجوبة ، وجريان الأحوال العجيبة - فكلها منه وإليه - أجمع

أهل العصر على أنه عديم النظر فيها ، غير مُشاركٍ في أساليب هذا الكلام في تطبيب القلوب ، وله إشارات لطيفة مستنبطة من الآيات والأخبار من كلام المشايخ والرموز الدقيقة .

أمّا عبد الغافر الفارسي صاحب تاريخ نيسابور فيقول : « كان لسان عصره وسيد وقته ، وسر الله بين خلقه ، وشيخ المشايخ ، وأستاذ الجماعة ، ومقدم الطائفة ، ومقصود سالكي الطريقة ، وشعار الحقيقة . وعين السعادة ، وحقيقة الملاحاة ، لم ير مثل نفسه ، ولا رأى الرءاؤون مثله في كماله وبراعته ، جمع بين الشريعة والحقيقة ، وشرح أحسن الشروح » أصول الطريقة « النص منقول عن السبكي .

ونحسب أن في هذا كفايةً لعلو مكانته - رضى الله عنه .



القشيري الباحث الصوفي

نستفيد من تقسيم التصوف الذي تعلمناه من شيخنا المرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمي ، وهو أنه تخلق وتذوق وتحقق .

ونتحدث عن القشيري الباحث الصوفي في سرعة تتناسب مع حجم هذا الكتاب ، أمّا من أراد الاستفاضة فليرجع إلى مطولاتنا عن ذلك .

ويتلخص مذهبه في (التخلق) بما في البداية من جهود كسبية (ومن مقامات) يريد بها العبد أن تنصل إرادته لكي يصبح سالكاً في الطريق .

ويتلخص مذهبه في (التذوق) فيما يشتمل عليه من مذاقات الحب ، وأحواله التي تتطور إلى الفناء ، فكأنه بمثابة ثمرة للرياضات السابقة .

ويتلخص مذهبه في (التحقق) فيما يُفاضُ على العبد من المعارف العليا والكشوفات ، وما قد يمن الله به من كرامات .

* * *

أولاً - مذهبه فى التخلق

بداية الطريق تخضع لمبادئ ثابتة ، وتظل هذه الثوابت من أول لحظات الرحلة إلى منتهاها ، وتتلخص فيما يلى :

١ - العقيدة والشرعة ووجوب التمسك بهما :

ومنذ افتتاحية « الرسالة » ينبه القشيري - فى حملة ضارية لا هوادة فيها - إلى أنه قد يندس فى هذا الطريق بعض المرضى أو الجهلة أو الأدعياء « الذين استخفوا بأداء العبادات واستهانوا بالصوم والصلاة ، وعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، وركضوا فى ميدان الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهوات .. ألخ » .

وحتى حين تتقدم بنا الدراسة ، ونصل إلى حال (الفناء) ، نجد القشيري يلح على حالة اسمها (الفرق الثانى) يُردُّ فيها العبد إلى الصحو كى يمارس الشرعة فى مواقيتها المحددة بلا خلل ..

وهكذا تماسك البنيان عند القشيري بين الشرعة والحقيقة ، فلا تحيف إحداهما على الأخرى ، لأنهما تتكاملان وتتفقان ،

ويعتبر استهانة العبد بأقل شيء في الشريعة علامة على عدم تمام صحة عرفانه ومقاصده « من علامة صحة العارف ألا يقع منه في أحكام الشريعة تقصير في جميع أحواله ، فإن لم تحفظ له أوقاته في أداء ما كلف به وإن كان مغلوباً ، فذلك لنقص في حاله » ، لطائف الإشارات ، ويقول في التحبير : « من تواجد ولم يرَ من تواجد زيادةً في دينه ، فينبغي أن يستحي ويتوب » .

ويذهب القشيري في ذلك مذهباً متشديداً حتى إنه يرفض الرخصة « لأن الرخصة في الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال ، وهذه الطائفة لا شغل لهم سوى القيام بحقه سبحانه ..

فإذا انحطَّ الفقير - يقصد الصوفى - عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة ، فقد فسخ عقده مع الله ، ونقض عهده فيما بينه وبين الله تعالى » .

٢ - النفس عدوٌ تحب محاربتها :

النفس عنده محل المعلولات أى الصفات الذميمة ، وجهادها هو الجهاد الأكبر - كما نبّه المصطفى صلوات الله عليه - وبمقدار الانتصار في محاربة النفس يكون جلاء (القلب) الذى هو مركز المحمودات ، فالصراع محتدم بين النفس والقلب ، وسنعود إلى تفصيل هذا الموضوع بعد حين .

« أول قدم فى القصد إلى الله الخروج عن النفس ، وقتل النفس يكون بالتبرى عن حولها وقوتها أو شهود شىء منها ، ورد دعاواها إليها ، وتشويش تدبيرها » .

و « المريد مسافر بقلبه ، يرتقى درجة بعد درجة فى طريق ذى منازل ومراحل » اللطائف .

إن إحياء القلب - بعد إماتة النفس - هو أول بند فى هذا الدستور ، إنه إحياء للوحدة المنشودة ، أى ليخلو ويصفو القلب للتوحيد - المطمح البعيد للموحدين العارفين .

أما مَنْ رام الجمع بين الضدين (النفس والقلب) أى طلبات الدنيا والاستعداد للآخرة ، فقد خاب سعيه ، ولم يرتفع غرضه ، لأنه لا يمكن (أن يكون الشخص الواحد منافقاً ومسلماً ، فالواجب مباينة الأضداد) .

٣ - الحذر الدائم من الارتداد عن الطريق :

عندما يأخذ العبد لقب (المريد) فمعنى ذلك أنه اختار هذا الطريق دون إجبار بل (بإرادته) ، وهو منذ اللحظة الأولى أحس بالجو الجديد الذى صار مناط أمله وقصده ، وعاش القوم الجدد الذين أصبحوا أكثر من أهلهم ، وتمرس ببعض رياضات البداية ، ولحظ ما فيها من مشاق وتكاليف .. وعلم

من اللحظة الأولى أيضاً أن المشاق ستزداد ، وانقطاعه عن الخلائق واليأس مما فى أيدي الناس .. كل ذلك حتماً سيتم على نحو أكمل ..

يعلم القشيري كل ذلك ، فيدخل فى الموضوع بعقلية المربى المجرب ويصارع المريد بكل شىء : « هذه طريقتنا .. وإلا فارجع من حيث أتيت .. ولا تثريب عليك ، أما إذا (أردت) أن تشاركنا فالزم ، الزم آدابنا وشرائطنا ، وامثل لتقاليدنا ، واخضع لشيوختنا دون أدنى اعتراض ! »

ويشبه القشيري المترددين فى هذه الفترة بالذين يدخلون الإسلام فى بداية أمرهم ، ثم يرتب على ذلك نتيجة هامة هى أن « المرتد أشد على المسلمين عداوة وكذلك من رجع عن الإرادة إلى حكم العادة » ، (اللطائف) .

ولهذا ينصح قدامى المريدين والسالكين بأن يرعوا الوافدين الجدد بكل الهمة ، ويتفرقوا بهم ، وينصحوهم بالصبر « فإن الرفق بأهل البداية إذا لم يكن لهم صرامة عزم ولا صادق جهد هو فى ابتغاء الإصلاح شىء عظيم » ، اللطائف .

ونحن نحمد للقشيري هذه النظرات الواقعية التى ترى القضية من زواياها المختلفة ، وهو فى ذلك يشبه مدى خبرته بخلجات النفس الإنسانية ، وآفاتنا ، والحكمة فى تشخيص أحوالها .

وهكذا يريد هذا المرئى أن يتأسس بنيان التصوف الشامخ على قواعد سليمة » ومن لم يحكم البنيان من أساسه سقط السقف بجدرانه . ومن أساء الأدب على البساط وجب رده إلى الباب « !

٤ - ضرورة التأدب بشيخ :

يعلم القشيري من واقع حياته الشخصية مدى أثر الشيخ الدقائق في توجيهه ومعاونته ، فهو هنا حين يضع هذا الشرط ضمن القواعد الأساسية إنما يدرك مدى الصراع الذي يقع فيه المبتدئ حيث تتجاذبه الدنيا والآخرة ، ولا يستطيع على حد تعبير الإمام على كرم الله وجهه : « الجمع بين شقيقتين » . هنا يأتي الشيخ ليمد له يد العون ، يفهمه حقائق الموقف ، يوضح له الرؤية .

ومهمة الشيخ - كما يرى القشيري - أن يبادر بنجدة المريد ، وأن ينبهه إلى ما قد يحدث من قصور في (الشريعة) ، ويهديء من انبهاره إذا لاح له - قبل أوان النضوج - لائح من (الحقيقة) .

فإذا ضمن الشيخ - هذه هي مهمته الرئيسية - أن تلميذه ومريده سائر على درب الشريعة والحقيقة اطمأن إلى ذلك ، وظل يرعى هذه النبتة حتى تثمر عند الأوان وليس قبل الأوان .

ونعتبر حديث القشيري في هذا الموضوع ، أى حقوق المريد
وواجباته وحقوق الشيخ وواجباته ، من أجمل الوثائق الصوفية
التي تنبئ - وهذا ما يدهشنا - على أسس في علم التربية ،
نقدمه نموذجاً لعبقريّة أسلافنا العظام قبل أن يظهر في الغرب
شئ يحمل هذا الاسم .

ونحيل القارئ على الرسالة واللطائف وغيرها من كتب هذا
الإمام الجليل - إن أراد المزيد في هذا الخصوص .

٥ - قضية لبس الصوف :

هذا موضوع شغل الباحثين في القديم والحديث ، وفي
الشرق والغرب .. ولهذا نود أن نقف على رأى القشيري فيه
يقدر ما تسمح الظروف .

فليس من شك في أن الذوق العربي والإسلامي عرف
(الصوف) كمقابل للحرير والخز ؛ لبساطة الصوف وخشونته ،
فهو أليق باختيار طريق الزهادة ، والاشتقاق اللغوي ساعد
على ذلك كما نعلم .

ولكن القشيري - ورغم تسليمه بذلك - يرى التصوف جوهرأ
لا مظهرأ ، ولهذا فهو يؤثر أن يكون الانتماء إلى (الصفاء)
فالصفاء معنى وجوهر ، وأولى أن يكون العبد عاكفا على

(تصفية) نفسه من كدوراتها فى معركة التخلّى والتحلّى .

وآية ذلك أنك حينما تهّم بقراءة باب « التصوف » فى « الرسالة » ، يدهشك أن يبدأ الشيخ كلامه هكذا : « الصفاء محمود بكل لسان ، وضده الكدرة وهى مذمومة .. » ثم يستمر فى الاستشهاد بنصوص تتردد فيها لفظة الصفاء ومشتقاتها إلى أن يقول : « الصوفى لا يكدره شئ ، ويصفو به كل شئ » .

وقد فطن شارحه الشيخ زكريا الأنصارى إلى مرامى الشيخ ، فأخذ بدوره يتحدث عن (الصفاء) الرسالة ص ١٣٨ وهامشها .

٦ - التخلق بأخلاق الفتيان :

(راجع القشيري المحدث آنفاً) وستجد الفتوة عند القشيري مجمع العديد من الفضائل ، أهمها فى نظره الإيثار والتضحية والبذل ، ولنستمع مثلاً إلى هذه الأقوال : « أفضل الأعمال ما كانت بركاته متعديةً من صاحبه إلى غيره ، والفتوة أن يكون سعيك لغيرك ؛ ففى الخبر : « شر الناس من أكل وحده » ، اللطائف .

وعند تفسيره لقوله تعالى : « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » يقول : « وأما أهل الفتوة فليس لهم مال حتى تتوجه عليهم مطالبته ؛ لأنهم أهل إيثار لكل ما يُفتح لهم » .

« إذا استصغرت قَدْر الدنيا جُدَّتْ بها على كل أحد ؛ فإن الله تعالى يحب كل جواد » .

ويتفرع عن هذه المبادئ الرائعة تعاليم بسطها القشيري ، مدعمةً بأسانيد عن شيوخ الطريق مثل : العفو عن عثرات الإخوان ، وألا ترى لنفسك فضلاً على غيرك ، وأن تترك ما تهوى إلى ما تخشى ، وأن تكف الأذى وتبذل الندى ، وألا تدخر أو تعتذر - أى لا تمنع طالباً من تحقيق مطلبه ، وأن تظهر النعمة وتستتر المحنة ، وألا تريح على صديقك .. الخ .

سيل من (الأخلاقيات) السامية يقوم التصوف فعلاً وقولاً على أنه (علم الأخلاق) الإسلامى الصميم ، ولو أننا راعينا بعضاً منها فى علاقاتنا الحياتية لاجتزنا كثيراً من مشاكلنا ، وحققنا معظم مراداتنا ، وكنا أكثر سعادة وهناءة .

٧ - الخُلوَّة :

يتفق القشيري فى معناها مع معظم كتّاب التصوف ، ونقصد به المعنى الحرفى للكلمة .

ولكنه يزيد خطوة عن ذلك .. فينبه إلى جوهرها الأصيل ، وهو أن يكون بمنأى عن التدخلات الداخلية والخارجية « فرما تكون بين الناس تلبس ما يلبسون ، وتأكل ما يأكلون ولكنك

منفرد عنهم بالسر « وفي موضع آخر يقول : « العزلة في الحقيقة اعتزال الخصال المذمومة ، لا بالتناهي عن الأوطان ، فيكون العبد كائناً بائناً ، أى كائناً مع الخلق بائناً عنهم بالسر » . ويشعر العبد في خلوته شعوراً عميقاً بسيطرة القوة الربانية وتركيز خضوعه لها دون تشويش « حتى إنه ليستحي أن يمد رجليه ، وهو في خلوته ، فذلك حفظ للأدب مع الله تعالى » التحبير في التذكير ص ١٢ .

ويغتنم في « لطائفه » فرصة تفسير « اخلع نعليك » فيقول : « أى أقم عندنا - يا موسى - هذه الليلة ولا تبرح ، وفرغ قلبك من ذكر الدارين ، فأنت على بساط خضرة ملك الملوك ، فتجرد لنا بنعت الانفراد » .

وقد يقال : لماذا نهتم بموضوع الخلوة ؟

والجواب أننا نرى متأثرين بأبي حامد الغزالي « أن خلوة الرسول ﷺ في غار حراء كانت أول أحواله الشريفة ؛ كان يخلو في الغار بربه ، ويتعبد حتى قالت العرب : « إن محمداً قد عشق ربه » المنقذ من الضلال ط . صبيح ص ٢٩ .

وتهمنا ملاحظة يهتم بها بالقطع مؤرخو العلوم الصوفية ؛ فإن ألفاظ : الزوايا والأريطة والخانقاوات ، وردت في

تضاعيف كتبه مما يقطع بأنها عُرِفت فى عهده ، ولهذه الكلمات معانيها الآن فى عصرنا فى خصوص الخلوة الصوفية .

٨ - السماع :

يهمنا أن نعرف رأى القشيري فى موضوع صوفى ، أثار الكثير من الاتفاق والكثير من الاختلاف : ذلكم هو السماع . نحاول أن نتعرف رأيه فى شرائطه وآدابه ، وعن الحركة أو السكون عند السماع ، وعن تأثير القوالين - أى المنشدين - فى حلق الذكر .

بادئ ذى بدء ، فإن القشيري فيما تلاحظه كان أقل اهتماماً بهذا الموضوع إذا قارناه بغيره مثل السراج مثلاً .

فبينما لم يزد اهتمامه به عن باب مستقل من أبواب «الرسالة» وبضعة آراء متناثرة فى لطائفه وتحبيره ، نجد السراج قد أفرد فى « اللّمع » أكثر من خمسين صفحة لهذا الموضوع وحده ، بل لخص من أجله كتاب « الوجد » لأبى سعيد بن الأعرابى .

وخلاصة رأى القشيري أن السماع انتباه إلى معنى أو معان ، يفتن إليها قلب الصوفى ، فتحدث فيه نشاطاً نفسياً وعضوياً ، فتوقظ حبه الدفين لمولاه ، فإمّا أن يتواجد ؛ أى تصدر منه

بعض الحركات أو الأصوات . وإما أن يهدأ ويسكن ولا يصدر عنه شيء ، ولكن القلب يبقى مزدحماً ومتفاعلاً من الداخل ، ويذهب في التأمل والاعتبار ، وقد تنزل دموع ، وقد تصدر همهمة ، وقد ... وقد يُصعق المرء ! وأراحنا القشيري حين وضع معياراً يضبط الأمر « من أصغى بحق تحقق ، ومن أصغى بحظ تزندق » ، ومعنى العبارة أن ملاك الأمر كله الصدق ، وأنتى للمرء أن يكذب على الرب ؟!

وإذاً فقد حوصرت المشكلة .. وأصبحت في هذا النفر من الأدعياء الذين تخلو نيتهم من الصدق ، فيتحركون للتظاهر .. هؤلاء منافقون والطريقة منهم براء .

أما إذا كان القلب مملوءاً بالصدق ، واستدعى الأمر الحركة فلا بأس ، واستدعى الصراخ فلا بأس ، واستدعى حتى تمزيق الثوب فلا بأس ، المهم .. الصدق ، الصدق !!

هذا ولم يكن القشيري مستريحاً دائماً إلى الاحتراف .. احتراف التحريك والتهيج (راجع مثلاً قصته عن عليّ القوالم ص ١١٥ بالرسالة وص ١٧٢ نفس المرجع ، فقد يدخل في الحرفة أناس غير معروفين للجمهور ، فيكون منهم تصرفات تسئ إلى الطريقة وأهلها) .

* * *

مقامات الطريق

المقام هو هذا الجهد الكسبي الذي يبذله العبد عندما يختار الطريق .. طريق الرحلة إلى الله سبحانه ، تمييزاً له عن (الحال) التي هي فيض من الله عليه ، بمعنى أنه إذا كانت المقامات كسبيه فالأحوال وهبية ، المقامات جهود ، والأحوال من عين الجود .

وهي عند القشيري : التوبة والورع والزهد والصبر والتوكل والرضا .. وهذه المقامات قد تزيد وقد تنقص عند بعض الباحثين غير القشيري ، وقد حاول بعض المستشرقين الذين أرادوا إرجاع التصوف الإسلامي إلى مصادر أجنبية من خارج البيئة الإسلامية أن يجعلها سبعة ، وأن يبنى على ذلك حكماً تعسفياً ، أنها مأخوذة عن العقبات السبع في المجوسية !!! وهذا ظلم للحقيقة ما بعده ظلم !

ولست أريد أن أغرق القارئ هنا في بيان معاني هذه المقامات ، فالكتب المتحدثة في ذلك كثيرة ، ومن السهل الرجوع إليها ، فضلاً عن أن اختصارها هنا سيخل بالموضوع إخلالاً شديداً ، لهذا أكتفي - بالنسبة للقشيري - ببعض الملاحظات السريعة .

فهو أولاً حريص أشد الحرص على أن يربط بين أى أصل لهذه المقامات وبين القرآن الكريم والسنة الشريفة ، لا من حيث ورود اللفظة صريحة فيهما بل بما تحمله من معانٍ تربوية لها قيمة عظمى فى الحياة الروحية .

وهو يميل إلى التقسيمات الثلاثية لكى يبين البداية والوسط والنهاية فى أى نشاط أو جهد ، والأمثلة على ذلك لا تحصى ، فهو يفرق - مثلاً - بين تاب ، وأناب ، وآب ، أى بين التوبة والإنبابة ، والأوبة ، ويستشهد على ما يقول من المصادر الإسلامية الأولى كدأبه دائماً .

وهو يجيد استعمال حروف الجر للدلالة على التفرقة بين المعانى ، فهناك فرق كبير بين كل من (الصبر) مع الله وعن الله وفى الله والله وبالله ... ألخ .

وهو يجيد التغلغل فى أعماق النفس ليعطيك اللفظة الملائمة للموقف .. وهنا يقف اللغوى موقف السعادة ؛ إذ يشهد إضافات للمعانى القاموسية المألوفة ، وجود بها التصوف على اللغة ، فهناك فرق دقيق بين كل من : التوكل والاستعانة والتفويض والإذعان والتسليم والاستسلام .

وهناك فرق دقيق بين الذكر والفكر ، وقل نفس الشئ فى كشف عيوب هذه النفس فى أعماق أعماقها ، والفرق بين العلة

والأخرى ، ثم ما دواء كل علة على حدة - ثروة هائلة يمتزج فيها علم النفس بعلم الأخلاق باللغة ، بحيث يزداد إعجابك بالتصوف ، وكيف أنه رافد غنى يرتبط بالمعارف ويربطها ، وهذا لعمر الحق ، فضل اشترك فيه باحثوا التصوف عموماً حتى ليصبح كأنه أحد طباعهم الخاصة جداً .

وإذا كان القشيري - كغيره - قد جعل (الرضا) آخر المقامات إلا أنه أضاف رأياً له وجاhteه ، فهو قد يعتبر الرضا مقاماً على أساس أن القناعة (جهد) يمارسه الإنسان ، ثم ينظر إليه على أنه (حال) على أساس أن الرضا منة إلهية ، ولن ترضى إلا إذا رضى سبحانه عنك ، والواقع أن القشيري مستجيب للبيئة في هذا الخلاف « فالخراسانيون يعدونه من جملة المقامات أي هو نهاية التوكل » أما العراقيون « فإنهم قالوا إن الرضا من جملة الأحوال ، وليس فيه كسب للعبد ، بل هو تازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال » الرسالة ص ٩٧ .

وهنا يبرز دور القشيري في التوفيق بين الاتجاهين حيث يقول : « ويمكن الجمع بين اللسانين ؛ فبداية الرضا مكتسبة للعبد ، وهي من المقامات ، ونهاية الرضا من الأحوال ، وليست مكتسبة » الرسالة ص ٩٨ .

* * *

ثانياً - مذهبه فى التدوق

إنه لشيء لافى للنظر أن يصدر عن القشبرى مصطلح فى هذا الباب ، ربما ينظر إليه بعض الناس نظرة لا تخلو من القلق . نعم .. حين يتقدم رجل من أوساط أهل السنة مشهود له بالرصانة والوقار ، فنسمع منه هذه النصوص :

« من جملة ما يجرى فى أقوال الصوفية الذوق والشرب ، ويعبرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التجلى ، ونتائج الكشوفات ، ويوادر الواردات ، وأول ذلك الذوق ثم الشرب ثم الرى ، فصفاً معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعانى ، ووفاء منازلاتهم يوجب لهم الشرب ، ودوام موصلاتهم يقتضى لهم الرى .. »

ويعضى القشبرى موضعاً تدرج هذه الأطوار : « فصاحب الذوق متساكر ، وصاحب الشرب سكران ، وصاحب الرى صاح الرسالة ص ٤٢ .

هذه الألفاظ الجريئة تخدم المعنى المراد تماماً ^(١) ، بل هى

(١) واضح أن حديث الشرب والسكر عند الصوفية ينصرف إلى (الخمر) الشفيفة البعيدة كل البعد عن الخمر البشرية الكثيفة ، وربما كان ورود هذه المعانى فى القرآن الكريم عن (خمر الآخرة) مشجعاً لهم على هذا التعبير .

ذات صيغة لغوية معبرة بدقة ، فصيغة (متساكر) أى
متفاعل فيها تكلف وفيها تقطع ، بينما صيغة (سكران)
فعلان فيها ملازمة واستدامة .

أما صاحب الرى فصاح « لأن من قوى حبه تسرمد شربه
فإذا دامت به تلك الصفة » لم يورثه الشرب سكرأ » ، فكان
صاحياً » .

* * *

والذى يهمنا أن أذواق الحب والفناء ومواجيدهما هى مناط
هذا الباب ، ولا توجد فواصل حادة بين الاثنين ، لأنهما
مستمران ومتواصلان ، ولابن الفارض تعبير جميل فى هذا
حيث يقول : « فلم تَهَوَّنَى ما لم تكن فى فانياً » .

أما الفصل القادم والأخير فسنخصصه (للتحقق) ، على
أساس أن المعرفة ، أو بعبارة أدق العرفان ، هى قمة الرحلة
وغايتها .

* * *

الحب والفناء وأحوالهما

تابع القشيري مادة (الحب) فى الرسالة وفى اللطائف متابعة جادة ، والذي يهمنا أن نقدم خلاصة لموقفه ؛ إنه يؤمن أن هناك حُبَيْن ؛ حب عام بمعنى الطاعة والتدين واتباع الأوامر واجتناب النواهى ... وهذا مطلوبٌ من كل مسلم ينتمى إلى الإسلام ، ويخلص فى اتباع سنة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام .

وحب خاص .. وهذا هو الذى يعطينا ، لأنه المقصود بالحب الصوفى « إنه نوع من الإنعام يخصص الله به خواص المؤمنين بالقرية والأحوال العلية » (الرسالة باب المحبة) .

والقشيري وشيخه الدقاق لا يطلقان عليه لفظ (العشق) ، وهذا شىء مشكور لأن المعتزلة والظاهرية (ينزهون الله عن العشق لأنه يقوم من الناحية النظرية على التشبيه ، ومن الناحية العملية على الملامسة والحلول) ، دائرة المعارف الإسلامية مادة تصوف ، وبهذا جنباً التصوف كل مظنة تأتى من طرف أعدائه .

وقبل أن نخوض فى دراسة هذا الموضوع علينا أن نتوقف

بعض الوقفات ذات الأثر الهام فى الفهم المذكر - مع مراعاة ما كررناه دائماً ، أننا هنا بعيدون عن التفاصيل والتفاريع ، بل نعمل فى حدود هذا الكتيب الصغير الحجم ؟ .

أولاً : لماذا كانت أحوال الحب والفناء هى (أزواج) من الثنائيات كثيرة كثيرة إذا قيست - نسبينا - بالمقامات التى هى فرادى ، وهى محدودة العدد - كما ذكرنا .

السبب الأساسى أن الأحوال من إلهية ، وليست كالمقامات كسبئية ، فالقلب هنا بين إصبعين من أصابع الرحمن يريه ويصقله تربية إلهية وصقلاً إلهياً ، فهو يعطيه بمقدار ما يستحق ، ويمنع عنه بمقدار ما لا يستحق .. (يبسطه) حتى يرى ما يحدث منه وله فى حال (البسط) ، ثم (يقبضه) لأنه يستحق ذلك فى (الوقت) المناسب ، أو خير له فى (الوقت) المناسب ، فالصوفى المحب يكون بحسب (حال الوقت) ، الصوفى ابن وقته ، أى ليس له أن يتجاوز الحد الذى أوقف عنده قيد شعرة .

عليه أن يلزم آداب (الوقت) وإلا عوقب بالطرد من على (البساط) إلى (الباب) - على حد تعبير القشيرى .

الشيء الثانى أن للقشيرى تصوراً للملكات الروحانية ، يتدرج من البداية صعوداً إلى القمة ، وكل ملكة لها وظيفة ،

وتلحقها آفة ، ولكل آفة علاج .. هذا موضوع هام جداً كى نفهم القشيري حق الفهم ، وكى تصبح عباراته قريبة المنال ، ولهذا نشعر الآن بضرورة توضيحه ؛ لأنه يهمنى الآن وفيما بعد ، ولنتصور مثلاً خط البداية :

هنا يبدأ (المبتدىء) رحلته .

على هذا الخط يوجد على اليمين (النفس) ، وعلى اليسار (العقل) ، النفس مركز المعلولات كما قلنا ، على العبد أن يبذل كل الجهود والرياضات والمجاهدات والمكابدات والمقامات كى يصلح من هذه النفس ، والأفضل أن يحاربها حتى يقتلها ، وبدلاً من أن تكون (الأمارة بالسوء) تصبح (الراضية المرضية) أو (المطمئنة) .

هذا عظيم .. تلك هى بداية الاختيار و (الإرادة) ، وعلى (المرید) أن يأخذ من علوم (العقل) ما وسعه ، وأن يبذل كل طاقته فى (تكريس الإيمان) .. لأن العقل فيما بعد لن يكون له دور فى المعرفة ، إذ أن التصاعد إلى القمم يبتعد بنا عن المحسوس ، ومن المعروف العلاقة بين الحس والعقل معنى أن نبتعد عن العقل أن أنواراً أكثر تدفقاً ستتتالى ، فيكون وجود العقل أشبه بوجود الشمعة ، حيث يوجد المصباح بل إن ضوء المصباح مرة أخرى سيكون بلا معنى ، حيث

يكون (البدر) ثم إن البدر نفسه لا قيمة لضوئه حين تطلع الشمس ، فما بالك حين تظهر (شمس الشموس) ! ؟ !

وبعد الانتهاء من معركة النفس ومن استيفاءات العقل يأتي دور (القلب) ليرث الاثنين ، فهو من ناحية قد ورث النفس باعتباره مركز المحمودات والخواطر الطيبة والسلامة الصافية والنقاء من الكدورة ، وهو من ناحية أخرى ورث العقل في استشفاف المعارف العليا التي ستنهال وتنثال .

ها نحن الآن أمام هذه الملكة العظيمة (القلب) ، ورث النفس وورث العقل ، ومناطق الأمل في بقية الرحلة .

يرتقى بنا القشيري مرحلة بعد القلب ، هي مرحلة (الروح) ، الروح عنده هي محل المحبة ، وهي منظورة على حب الله منذ يوم العهد أو يوم الميثاق .. ذلك اليوم الذي (ذرَّ) فيه الأرواح قبل أن تلج إلى الأجساد ، فأخذ عليها العهد بالإيمان به ويحبه « ألسن بريكم » ؟ قالوا : بلى .

هكذا أمر جميع الأرواح ، وإنما حصل الاختلاف بينها من كفران أو شكران بعد دخولها إلى الأجساد .

ثم يأتي (السر) بعد (الروح) .. وإلى هنا ولا يكاد تصور القشيري يختلف كثيراً عن بقية الباحثين الكبار في هذا الموضوع ، إلا إنه بعد ذلك يزيد ملكة أخيرة هي (السر) ،

وهو عنده وديعة رمانية ، أودعها الله أمانة عند عبده المحب ،
كى يشهد بها الأنوار العليا ، وهى عين صافية لا آفة لها ولا
شائبة فيها ، لأنها كما قلنا وديعة إلهية !
نحن إذاً أمام : النفس والعقل .

القلب

الروح

السر

سر السر أو (عين السر)

اقرأ ما شئت الآن من نصوص للقشيري ، تجد نفسك على
بصر وبصيرة بمرادات الشيخ دون إعنات أو مشقة ، مثلاً (نفوسهم
محالٌ لعبادتنا) (أى المراحل الأولى للتعبد والتصفية) ،
وقلوبهم منازل لمعارفنا (لاحظ كيف ورث القلب العقل فى
المعرفة) ، وأرواحهم مواضع لمحبتنا ، (تذكر يوم الذر
والتعاهد مع الأرواح على الإيمان والحب) ، (وأسرارهم
معاهد لمشاهدتنا) . واستمع أيضاً دون تدخل منا بالشرح بعد
ما سبق من إيضاح : (نفس العابد ينبغى أن تكون مقرر
الطاعة ، وخرابها الشهوة ، وقلب العارف ينبغى أن يكون
قرار المعرفة ، وخرابها الغفلة ، وروح الواجد ينبغى
أن تكون قرار المحبة وخرابها الحجة) ، وسر الموحدين

ينبغي أن يكون قرار المشاهدة وخرابها الحجة والوحشة) .
وعلاج ذلك فى كلمة واحدة هى عنده (التطهير) ..
استمع : (تطهير النفس يكون عن عبادة غير الله ، وتطهير
القلب عن تعظيم غير الله ، وتطهير الروح عن محبة غير الله ،
وتطهير السر عن مشاهدة غير الله) .

والآن أصبح واضحاً أن الرحلة الصوفية فى صميمها ، قصة
كاملة بالمعنى الحرفى للكلمة .

فهنا .. الروح حينما كانت طليقة من الجسد أحبت ربها ،
ثم حينما دخلت هذا القفص الترايبى الذى هو الجسد حدث
الخلل والاضطراب ، وحدث (الصراع) بين نزعة الشر
الكامنة فى النفس ونزعة الخير المشرببة فى القلب ..

فبمقدار ما هنالك تيار دنيوى يأخذ بتلابيب المرء نحو
الأمر الدنيء ، يكون هناك (اشتياق) للروح ، لتعود إلى
الآفاق العلية ، أى من حيث جاءت ، ومن حيث صدرت ، ومن
حيث عهدت ، وتعاهدت مع مولاهما على حبه والعودة إليه !!

هذا هو الموضوع فى بساطة شديدة ، وهذا هو سر الروعة
الرائعة والدفء والصدق الذى تلمحه فى الشعر الصوفى عبر
العصور ، عند العرب والفرس والترك وغيرهم ، كان التصوف
قصة حب رائع بمقدار ما فيه من إخلاص وتدفق وصدق ، ويُعد

عن التزييف .. ومن هنا يستحق الشعر الصوفي احترام الناس وإجلالهم ، فليس فى الغزليات أو الخمریات الصوفية كلمة واحدة مزيفة أو مشبوهة أو مقصود بها بشر .. كله لله وفى الله ، وبالله .

وهذا هو الذى يحفزنا دائماً على حث الناشئة على الاستزادة من معالى الشعر والنثر الصوفيين ؛ ففيهما كنوز أدبية وفنية ومعرفية لا تكاد تنتهى .. وسنعود لنمس هذا الموضوع مرة أخرى .

* * *

فإذا اقتربنا من هذا الحب المخصوص عند القشيري ، وحاولنا أن نستخلص سماته ، وجدناه يمتاز :

١ - بالصفاء من المظم

٢ - وبالصدق

٣ - وبالتجرد من كل السوى

وبهذه المعانى يقترب قلب المحب من شىء هام جداً ، هو (التوحيد) ، فإذا كان التوحيد فى الدين التقليدى عبارة تقال ، فهو هنا حالة تطبيقية .. حيث تسقط كل الإرادات إلا إرادة الله ، وتسقط كل الباءات (أى الملكيات) إلا لله ،

فالمريد على حقيقة من سقطت كل إراداته فى إرادة المولى .
وعلى هذا فالتوحيد هنا أن يفتى الموحد فى الموحد ، فلا
يكون إلا واحد .

وبهذا الفهم يلتقى التصوف مع الدين فى أعظم جواهره ،
وهو (التوحيد) ، وبهذا يمكن القول على الفور إن الشريعة
والحقيقة وجهان لحقيقة (واحدة) ، وبذا يكون القشيري قد
سخر تصوفه لتنزيه الله ، وفرض على كل مجترىء على
التصوف أن يلزم حدود الأدب فـ (التوحيد) . وتوحيد
الكائنات دلالة ، أما توحيد أهل الصفوة فهو توحيد الحالة (
اللطائف .

والحب الكبير يقاس بعنصر المأساة فيه ، وهذا الحب
الصوفى فيه ما فيه من المشقات والابتلاءات ، وكل (وقت)
فيه مسخر للوصول ، ومن هنا عرفوا قيمة هذه اللفظة
(الوقت) .

يقول الدقاق شيخ القشيري (الوقت مبرد يسحقك ولا
يحققك ، يعنى لو محاك وأفناك لتخلصت حين فנית ، ولكنه
يأخذ منك ، ولا يحوك بالكلية) الرسالة ص ٣٤ .

أما أحوال الحب والفناء فهي بدون شرح (يمكن الرجوع إلى الرسالة) تبدأ بالخوف والرجاء ، ثم بالقبض والبسط ، فالهيبية والأنس ، ثم التواجد والوجد والوجود .

ثم طائفة أخرى : الجمع والفرق ، الغيبة والحضور ، المحو والإثبات ، القرب والبعد ، السكر والصحو ... ألخ .

وبينما هي عند القشيري يمكن حصرها مهما ازدادت عدداً إلا أنها عند باحث آخر كأبي عبد الله الأنصارى الهروى تبلغ عدد أنفاس الخلق أى لا يمكن حصرها اعتماداً على أن أفعال الله فى عباده ، وممتنه عليهم لا حصر لها .

والقشيري مشكور أعظم الشكر حينما يصف العبد مهما أوغل فى (الفناء) بأنه لا حلول ولا اتحاد ولا امتزاج ولا أية شائبة من شوائب دخول العبودية فى الربوبية (فقد جلّت الصمدية عن أن تكون مورداً للبشر) .

بل إنه يستحق إعجابنا حينما يفسر الفناء تفسيراً سلوكياً : (الفناء سقوط الأوصاف الذميمة ، والبقاء يكون بالأوصاف الحميدة) .

ويزداد إعجابنا أكثر ، حينما يلح أن يعود (الفانى) إلى وعيه فى حال (عزيزة هى الفرق الثانى تمييزاً لها عن الفرق

الأول) كى يؤدى العبادات فى مواقيتها ، وكى لا يكون هناك إخلال بالشريعة (الرسالة . ص ٣٩) .

أما ما يحدث من (الشطح) ، فيقارن بينه وبين مجنون بنى عامر (كان إذا نظر إلى الوحش يقول : ليلى ، وإلى الجبال يقول : ليلى ، إلى الناس يقول : ليلى ، حتى قيل له : ما اسمك وما حالك ؟ يقول : ليلى) أى أنها كلمات صادرة عن عبد واله لا يملك لنفسه فى نفسه شيئاً ، فإذا صح ذلك فى حب مخلوق لمخلوقه فما بالك بحب العبد للرب ؟!

* * *

ثالثاً - مذهبه فى التحقق

التحقق فى أبسط تعريف له هو حصول المعارف للعبد الذى اختار هذا الطريق مبتدئاً فمريداً فسالكاً .. ولكى أُميّر القشيري عن غيره - أو ربما أُتفق مع قليلين - أن قمة حال المعارف بالله هى (التوحيد) فالتحقق هو حصول التوحيد الذوقى الشهودى .

فإذا كانت الحقيقة تنتهى بالتوحيد .. توحيد الحالة .

وإذا كانت الشريعة جوهرها التوحيد .. توحيد القالة .

فما أبدع أن يلتقيا هنا ، لأنه إذا كانت الشريعة للكافة وكانت الحقيقة للخاصة إلا أن الكافة والخاصة فى كنف الرب لا خلاف بينهما ، ولا تناقض ، ولهذا يقول شيخنا (كل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول . الشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن تصرف الحق ، وأعلم أن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره ، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث إن (المعارف) به سبحانه وتعالى وجبت بأمره (الرسالة : ص - ٤ .

أظن أنه ليس هناك كلام أوضح من هذا ، فلتنخرس السنة
المتريصين بالتصوف فى كل العصور ، ولتعلم أن البداية
والتوسط والنهاية لكليهما - الشريعة والحقيقة - كلها
منسجمة ومتلاقية مهما أوغل الفانى فى فئاته أو المشاهد فى
شهوده .. أو حتى الشاطح الصادق فى شطحه الصادق !

فالسراج فى « اللمع » يدرك أن بعض الناس تأخذ على
القوم (شطحهم) أى خروج بعض الألفاظ أو العبارات إبان
غلبة الشهود .. فيعرف « الشطح بأنه كلام ظاهره قد يبدو
مستشنعاً ولكن باطنه سليم » ويعلله بأنه « كما يزيد الماء فى
النهر فيشطح على جانبيه ، كذلك يزيد الحب فى قلب العبد
فيعجز عن كتمانہ ، ويفصح عنه .. » .

ونضيف إلى هذا رأينا .. وهو أن اللغة لم تضع فى حسابها
مثل هذا الموقف ، فاللغة فى الأصل وسيلة (اجتماعية)
يتخاطب بها الناس ، فيفهمون عن بعضهم بواسطتها .. أما
هنا فالموقف فريد .. فنحن بإزاء عبد يشاهد الأنوار الإلهية ،
أى هنا العبد والرب .

فهنا مناجاة من نوع معين ، وليس أمام المشاهد - الذى هو
بشر - إلا (اللسان) و (اللغة) التى ألفها الناس ، فهو
يأخذ منها ما يصف به الموقف الذى هو عليه فى (الوقت) .

.. وهنا يحدث الالتباس .. يأتي من لا يعرفون ولا يذوقون فيعذلون ولا يعذرون ، ويلومون لأنهم فى النهاية لا يفقهون ، ولهذا ... فالذى يقترب من (المعارف) الحاصلة فى (التحقق) ثمرات للمشاهدات .. يجب ألا يخوض فيها كل من هب ودب ، وقد فطن كبار الشيوخ فنبهوا إلى ذلك .

هنا خصوصية فى اللغة وخصوصية فى الموقف وخصوصية فى الكشف .. هنا عبدٌ وصل ثم اتصل ، هنا عبدٌ يظل فى التلوين حتى يصل إلى التمكين ، إنه يرقى إلى أن يكون محوًّا بمعنى أنه لا إرادة له فى نفسه بل كل الإرادة فيه لله ، إنه أصبح صورة لفضل من أفضال الله .. إنه موحدٌ وعارف بالله ، إنه وليٌّ .. ! إنه فى قمة القمم .. حيث لا مكان ولا زمان !

* * *

المشاهدة

فى التفسير الإشارى للإمام القشيرى يوضح كيف أن تبشير الكشف لا تلوح للعبد فجأة ، وهذا سبب ما حدث لموسى عليه السلام ، عندما ألح فى طلب الرؤية وقيل له : لن ترانى .. فماذا كانت النتيجة ؟ يجيب القشيرى : صعد موسى ، واندك الجبل ، ولم يستقر مكانه ، وكان ذلك بسبب طلبه الرؤية « حين

لاحظت له تباشير الجمال والجلال « هذه هي الإشارة كما يلتقطها وجدان هذا الشيخ .

وقد أحسن الصوفية - والقشيري منهم - فى الاستعانة بمظاهر الطبيعة لتقريب إيصال المفهوم من (التدرج) النوراني لا الطفرة . فهي (لوائح ثم لوامع ثم طوابع) وأضاف القشيري (ثم شوارق ثم متوع النهار) .

والوقفة اللغوية عند كل لفظة تعطى دلالة مبينة ، سواء فى مقدار النور أو مدة مكثه ، والقشيري مشكور حينما أعطى اهتماماً لهذا الجانب اللغوى حتى يفيد تلاميذه وقُرَّاءه .

بل هو مشكور أيضاً حينما أضاف إلى ذلك البعد النفسى بمعنى وصف حال (المشاهد) حين تلقى واحدة من هذه الدرجات ، ثم الانتقال إلى ما هو أرقى ، وأحياناً تحدث عقوبة فينزل إلى ما هو أدنى !!

ويصل بنا القشيري فى التوضيح إلى نظرية فى الفهم لهذه المراتب العلية ؛ إذ يتدرج (بالمعرفة من برهانية إلى بيانية إلى عرفانية) ، وستحدث بعد قليل عن ذلك ، ولكن لا ننسى أن نذكر القارىء بأننا هنا فى معراج القشيري الذى أوضحناه خاصاً بالملكات فى منطقة فوق (الروح) التى هى موضع المحبة ، نحن فى منطقة (السر) أو (عين السر) أو

(سر السر) ، واستمع إلى تفسيره الإشارى عند قوله تعالى :
« يعلم السر وأخفى » حيث يقول : (أى لا يطلع عليه إلا
الحق ، فهو لا يفسده الشيطان ، ولا يكتبه الملكان ، ويستأثر
بعلمه الجبار ، ولا تقف عليه الأغيار) ، لطائف الإشارات .

وثمة ملاحظة على جانب كبير من الأهمية :

فلو أنك قرأت فصلاً مماثلاً عند مؤلف كالأنصارى الهروى
لوجدته يقول : « والمعينة على ثلاث درجات : الأولى معينة
بالأبصار ، والثانية معينة بالقلب ، والثالثة معينة عين الروح .
وهى التى تعين الحق عياناً محضاً » ، (منازل السائرين
للهروى ص ٢٩) .

إنك غير واجد شيئاً من ذلك عند القشيرى ، فليس عنده
مهما أوغل العبد فى الصعود معينة بالأبصار !!

وتلك تحذيرات جميلة تحمد للقشيرى ، وتحسب له ، تزيده
فى نظرنا احتراماً وتقديراً ، فقد جلّت الصمدية عن أن
تستشرف منها حدقة عين بشر !! وهذا يتفق وصورة « المطلق »
فى الفلسفة ، إنها مجرد مكاشفات جمالية جلالية ، كما
تتجلى صفات الله سبحانه فى الكون فى الشجر والطير
والسما والفضاء والأرض والبحر !

صفات الفعل .. الجمال والجلال ، وليست صفات الذات ..
 (جلّت الذات عن أن تكون فى وهم واهم) والآن نسمعك هذا
 النص للقشيري ونحن مستريحون ومتفاهمون ومتفهمون بعد
 أن استوعبنا معاً منهج هذا الشيخ الجليل .

« اعلم أنه عز وجل يكشف القلوب مرة بوصف جلاله ،
 ومرة بوصف جماله ، فإذا كاشفها بوصف جلاله صارت
 أحوالها دهشاً فى دهش ، وإذا كاشفها بوصف جماله صارت
 أحوالها عطشاً فى عطش . فمن كاشفه بوصف جلاله أفناه ،
 ومن كاشفه بجماله أحياء ، فكشف الجلال يوجب صحواً وغيبة ،
 وكشف الجمال يوجب صحواً وقربة ، فالعارفون كاشفهم بجلاله
 فغابوا ، والمحبون كاشفهم بجماله فطابوا ، فمن غاب فهو
 مُهَيِّمٌ ، ومن طاب فهو مَتَّيْمٌ » ، (التعبير فى التذكير : ص ٣٩)

* * *

العرفان

أوضحنا فيما سبق أن القشيري يميز بين نوعين من المعرفة ؛
 معرفة فى البداية أساسها خدمة العقل بكل الوسائل المتاحة
 من أجل تصحيح الإيمان ، وتكريس العقيدة .. هذا مطلب عام ،
 أو قل فريضة عامة واجبة على كل متدين ، ويغض النظر عن
 ثقافته . وهذا القدر المتاح تتسع دائرته لمن يقترب من العلم

الدينى فيشمل كل علوم النقل والعقل ، وقد رأينا من سيرة القشيري كيف أعاده شيخه الدقاق إلى طلب المزيد والمزيد من هذا اللون من المعرفة عند شيوخها ومجالسها .

غير أن هناك نوعاً ثانياً - وهو الذى نقصده هنا ، ويطلق عليه « العرفان » ، وصاحبه العارف بالله ، ولفظة « بالله » فى هذا اللقب مقصودة تماماً ، فهو عارف لا بفضل شخصيته أو ذكائه أو عقله بل « بالله » وأئمه الشخصيات هنا معناه ذويان إرادة هذا « العارف » فى إرادة مولاه لكى يكون « بالله » .

وتكون الخلاصة فى رأى القشيري : « أن المعرفة فى الابتداء كسبية وفى الانتهاء وهبية » وبشكل أكثر تفصيلاً وتدقيقاً المعرفة على ثلاث درجات :

١ - عقلية : ونورها البرهان أو علم اليقين .

٢ - قلبية : ونورها البيان أو عين اليقين .

٣ - كشفية : ونورها (العرفان) أو حق اليقين .

ويوضحها فى موضع آخر فيقول : « نور فى البداية هو نور العقل ، ونور فى الوسائط هو نور العلم ، ونور فى النهاية هو نور العرفان » .

التزم القشيري بهذا الترتيب العرفاني الثلاثي التزاماً جاداً ،
وأخلص له في كل مباحثه وتصانيفه .

ولن نبخل على القارئ بوقفه أكثر تمهلاً عن « العرفان »
كى نزيده إيضاحاً ، وهو حقاً جدير بكل هذا الاهتمام ؛ لأننا
الآن في منطقة قمة القمم ، وقد بذلت كل الجهود المضنية فيما
سبق لأجل تحقيق هذا الطموح المجيد

السر وعين السر هما موضع العرفان عند شيخنا ، وهما
عنده بعيدان عن آفات النفس والعقل كل البعد ، ولهذا فإن
طبيعة العرفان تختلف اختلافاً هاماً عن المعرفة العقلية ؛
فأرباب العقول يستدلون بوجود المخلوق على الخالق ،
وبالمصنوع على الصانع ، وبالمحدث على القديم ، وبالتنسبي
على المطلق . أما أرباب العرفان فالله عندهم حاضر ومشهود ،
فهو لا يغيب - كما يعبر ابن عطاء الله السكندري - حتى
يُستدل عليه ، وهو سابق لا مسبوق - فبه يعرفونه أو كما
يقول ذو النون : « عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي »
وليتذكر القارئ الكريم ما قلناه منذ برهة عن (العارف بالله) .
ويقول يحيى بن معاذ الرازي أحد شيوخ الرسالة : « اللهم
إنى أتقرب إليك ، وبك أدل عليك » .

ويقول أبو يزيد البسطامي « إنى لا أفهم عنك إلا بك » .

وينتھز القشیری فی تآلیفہ کل فرصۃ لکنی یوضح ما یصیب
المعرفة العقلیة - التی یزھو بہا أهلہا - من آفات .

یقول عن العرفان فی اللطائف : « لیس فیہ ما فی المعرفة
العقلیة من التجویز والتردد والتحیر ، فکل ذلک منتفی عن
قلوبہم ، فشموس العرفان طالعة علی (أسرارہم) ، وأنوار
التحقیق مالکۃ أسرارہم ، فلا لہم تعب الطلب ولا علیہم سلطان
الفکر ، وشعاع شمس العرفان مستغرق لأنوار نجوم العلم » .

* * *

أوصاف العارفين

ہذہ الحیاء الروحیة الزاخرة من بدایتہا ووسطہا ونہایتہا
بکل ما ینعش الضمیر والقلب والوجدان لا بد أن تنعکس علی
صاحبہا ، فتتمو وتزدهر فی أعماقہ سعادة لا تعادلہا سعادة ،
وہذہ السعادة بدورها تظهر بادیۃً علیہ فی سلوکہ ، فہو مع
الناس ومع اللہ ومع نفسه یمتاز بصبغة خاصة ، صبغة اللہ ،
وہل أحسن من اللہ صبغة ؟!

وہنا یُطل التصوف برأسہ ليقول للناس : أى علم من
علومکم یمکن أن یتغلغل فی أعماق صاحبہ علی ہذا النحو
الأخاذ الذی یحدث لبدی ؟ !

وقد أحسن الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا حينما خص هذا الموضوع فى آخر « الإشارات والتنبيهات » باهتمام خاص ، إذ جمع فى صعيد واحد مجموعات هائلة من أوصاف العارفين . ولهذا حقّ علينا أن نتقصى هذا الموضوع عند القشيري ، لنتعرف رأيه فيه ، وهو مُنبثٌ فى تضاعيف مؤلفاته .

يقول القشيري فى تحبيره : « ومن أوصاف العارف ألا تأخذه فى الله لومة لائم ، فيكون بالحق ناطقاً ، وبحق الله قائماً ، وفى دين الله قوياً ، لأنه المعرفة تقتضى استصغار الأقدار سوى قدره ، ومحو الأذكار سوى ذكره ، فإن نطق نطق بالله وإن سكت سكت بالله ، وهو يحتمل الأذى بطيب نفس من كل الخلق » .

ويقول فى نفس الكتاب : « من عرف أنه تعالى المتفرد بالملك أنف أن يذل لمخلوق ؛ لأن المعرفة بحقيقة ملكه توجب التجرد له فى التقرب إليه ، وتوجيه القصد نحوه فقط » و « العارف يثق بما عند الله ، فلا يتوقف عن الإنفاق والبذل لتحقيقه أن الخلق من الله سبحانه - معجّل ، وجميل العقبى مؤجّل » و « العارف قلبه سليم خالص من الغل والغش والحدق والحسد ، لا يُضمر لأحد من المسلمين إلا كل صفاء وخلوص وصدق ونصح ، فيحسن الظن بكافتهم ويسىء الظن بنفسه »

و« العارف حسن الانتظار للطف الله ، دائم الترقب لمحصول فضله - مستديم التطلع لنيل كرمه ، تارك للاستعجال ، ساكن تحت جريان الحكم » .

* * *

الولاية

عندما فسّر القشيري قوله تعالى : « يلقى الروح من أمره على من يشاء » (١٥ سورة غافر) قال : « وهذه الروح هي روح الرسالة ، وروح النبوة وروح الولاية وروح المعرفة » .

ونفهم من ذلك أن الأولياء أعلى درجة من العارفين ، أو هم صفوتهم ، وإنهم - وهذا بدهى - أدنى درجة من الأنبياء .

وإذا كنا قد ذكرنا من قبل أن التوحيد هو أعلى درجات العرفان ، فمعنى هذا أن الولي مختص بأعظم ما في التوحيد من أسرار ؛ وفي ذلك يقول القشيري « للأولياء أسرار التوحيد بالتعريف من حيث الإلهام والخواطر ، ولكنهم لا يؤمرون أن يتكلموا ، وإنهم لا يحملون رسالة كالأنبياء إلى الخلق » .

وكما أن للنبي ﷺ معجزة فإن للولي كرامة ، وكلتاها تتم بمشيئة الله وفضله . وقد تحدثنا عن نوع من الكرامة ، حدث بالنسبة للإمام القشيري إبان محنته ، واستشرافه بالفِراسة - على مصرع الكندري - في خراسان .

ويرى ابن فورك أستاذ القشيري « أن الأنبياء مأمورون بإظهار المعجزات ، بينما الأولياء مأمورون بستر الكرامات وإخفائها » ، الرسالة ص ١٧٤ .

ويرى القشيري أن الكرامة في الأصل دلالة على صدق النبي الذي يتبعه هذا الولي ، ولهذا نسمعه يقول في لطائفه : « وكرامات الأولياء ملحقة بمعجزات الأنبياء » .

والملاحظ أن القشيري في هذا الموضوع لم يمنح نفسه حرية التحرك والخوض في الدروب الوعرة أو المياه العميقة ، بمعنى أننا لا نسمع عنده ما نسمع عند غيره من تفضيل الولاية على النبوة لأن الولاية في الأصل لله « الله ولي الذين آمنوا ... » .

ولا نسمع عن خاتم الولاية ، ولا نسمع عن معارج الأولياء ، كما هو الشأن عند الترمذي وابن عربي وغيرهما ممن خاضوا في الموضوع إلى آماذ بعيدة .

ويبقى القشيري كالعهد به حريصاً على التصوف أشد الحرص ، فهو مكتف بأن يبتعد به عن كل مظنة حتى لا يعرضه للسهام التي قد لا تخلو من الغرض أو سوء الفهم أو الجهل .

* * *

حواشٍ هامة

نريد أن نختم هذا الكتاب ببعض ما رأيناه مفيداً للقارىء والذائق من توجيهات القشيري ، وهى كلها فى إطار تجربته الصوفية الخاصة التى أمتعنا بها فى كتابه الذى حققناه وشرحناه ، وهو « ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى » .

نعم ، فالقشيري فى معظم كتبه تغلب عليه صفة الصوفى الباحث ، أما فى « الترتيب » فإنه ذو طبيعة خاصة جداً ، إنه سجل تجربته صوفياً ذائقاً .

لهذه رأينا ألا نحرم القارىء من معايشة هذا السفر النفيس .
وبهذه المناسبة فهذه هى المرة الثانية التى يظهر فيها كتاب للقشيري مذكراً بالشرح ، فشرَحْنَا على هذا الكتاب بتلو شرح الشيخ زكريا الأنصارى على « الرسالة » .

وهذا شرف لنا لا يعدله شرف .

* * *

يقول فى (الذكر وامتداده) : « ويستمر المريد فى الذكر

حتى يغيب به عن جميع الأشياء ، ويتوقف ذلك تماماً على
توفيق الله إياه فى تقوية إرادته ، ثم يغيب بالذكر عن نفسه ،
ثم يغيب بالذكر عن الذكر ، ويبقى مرة « طويلة » بين غيبة
عن الذكر بالذكر وبين حضور للذكر بالذكر .. ولا يزال يرتقى
فى كل غيبة وحضور إلى رتبة أخرى .

ثم يرد ورود آخر عليه أعلى مما سبق ، وعندئذ يفنى العبد
عن كل هذه الأحوال - وهذه هى حال البقاء ، وهى غيبة يسلب
فيها عنه لسانه وسمعه وبصره .

وتبقى له شهادة القلب ، ويعجز فيها اللسان ، ويكون القول
هنا بالقلب نطقاً ، لا علماً أو شهادة ، بل كما كان ينطق
بلسانه من قبل ، فإنه هنا يذكر بقلبه حتى يرد عليه ورود آخر
أعلى من سابقه - وذلك بعد مدة حسبما يشاء الله له وعليه .

ويكون هذا الورد من حيث (الهيبة) ، وحين يبدو هذا
الورد يظن العبد عنده أنه قريب من أنوار الحق ، ويفنى العبد
فى هذا الورد .

وعند ذلك يُردد العبد بين حالى البقاء والفناء .

وفى كل مرة يُرد إلى البقاء ، تزداد عبارات قلبه حتى
تنتهى إلى أذكار يجدها فى قلبه مدةً بالسنة مختلفة ،

وبعبارات لم يسمعها من قبل ولا خطرت بباله ، إنها كلها ذكر لله ، يملأ قلبه حتى إنه ليتوهم أن جملة الكون تشترك بعبارات مختلفة في هذا الذكر ، وبصير العبد بحيث لا يميز بين الذكر الذي يبدو من قلبه وبين ذكر الكون من حوله ، وذلك بسبب غلبات الأذكار عليه ، فهو يسمعها كلها في وقت واحد .

وبعد ذلك .. يورد وروداً آخر ، وخيز وصف له أن من ذاقه من سالكى هذه الطريقة على سبيل الوهلة ، فإنه يموت وذلك من (هبة) الحق سبحانه . وعند هذا الورد يفنى العبد ، ولا يبقى منه شيء .

وبعده يرد إلى حال البقاء ، فتسلب عنه أحوال القلب من الشهادة وغيرها ، إذ يبدو له من الغيب سر ، وعلامته ألا يبقى للعبد لنفسه في نفسه شيء ، فليس له إلا الله .

وهذه الحالة تشبه حالة البحر ، عندما تصير كل الأنهار إليه وبحكمه ، وليس لغير الله حكم . وعندها لا يكون من العبد حركة ، وكان قبلها يتحرك بالوارد الذي يرد عليه . أما الآن فإنه يتحرك بحركة البحر ، فإذا بدا تحرك البحر تحرك ، وإن سكن سكن .

فالسultan هنا للبارى وحده - عز شأنه - والعبد في هذا الموقف يشاهد الجمال في جملة الكون ، يضيء بنور الله

تعالى . فكأنه يرى جميع الكون من السماء والأرض ، لا رؤية عيان بل رؤية قلب وبصيرة . وهى ليست رؤية علم ؛ لأنه لا يشعر بحركة فى الكون لذرة أو لنملة .

ثم ينتقل القشبرى موضحاً « ذكر الجوارح » فيقول : « عند ابتداء الذكر بالجوارح ، يجد العبد حركة فى كل جوارحه حتى لا يبقى جزء من لحمه وعظمه إلا وفيه حركة واختلاج » .

وتقوى الحركات والاختلاجات حتى تصير أصواتاً وكلمات تنبعث مسموعة من جميع الجوارح والأجزاء - ما عدا اللسان ، لأن اللسان لا ينطق فى مثل هذه الأحوال « فذكر اللسان كان فى البدايات ، أما هنا فقد حلّ محله أشياء أخرى أرقى وأعظم » .

ويلزم العبد التركيز فى هذه المهمة ، وهو يتيقن أنه لو لاحظ هذه الأذكار ، وطلب علمها فإنه ينفى عنها إلى غيرها ، ذلك لأن الذكر قد وقع على القلب .

صحيح إنه فى حال ذكر اللسان قد يكون للجوارح حركات واختلاجات ولكنها ليست على هذه الدرجة من القوة والشمولية .

ثم يوضح القشبرى لفظاً لها من الإشكالات عند الناس الذين لا يفقهون أصداً غير مستحبة فى بعض الأحيان ، وهى

حالة « الشُّرب » فيقول بالنص : « يظهر على العبد شيء يجد له حلاوة في فيه وفي حَلَقِه حتى ليقوم له ذلك مقام طعامه وشرابه ، وهو يجد منبع ذلك الشراب - في أصول أسنانه - أحلى من العسل ، فيبقى أسنانه مطبقة بعضها على بعض ، ويشق عليه لو فتح فاه حينما يجد الشراب في فيه على هذا الوصف .

وفي حال هذا الشرب يقرب العبد من الموت ، كأنه يذوب ويكاد يموت ، والواقع أنه لا يخاف إلا من الموت ؛ لأن الموت يحول بينه وبين هذا الشراب .

هل سمعت يا أخى القارئ الكريم بشيء في المذاقات أحلى من هذا ؟!

وتزداد حلاوته حينما أذكرك أنه صادر عن شيخ من أوساط أهل السنة يحظى بكل الاحترام والتوقير في عصره وبعد عصره ، وهو متكلم عقلاني في بدايته ، وليس أميا أو جاهلا !!

أرجو أن تعيد قراءة الفقرة السابقة ، ثم تعاود الاستماع إلى الشيخ ، وهو يُعلِّق عليها : « وهذه الرتبة التي يبلغها العبد يهرب عندها ألف رجل من هذه اللذة ، ولا يهرب منهم واحد من الألم ؛ لأن هذه اللذة أصعب وأقرب من الموت حيث يذوب العبد ويتلاشى وكأنه في طريقه إلى الموت !

ولهذا فإن بعض المبتدئين يهرولون من الخلوة عندئذ ويؤثرون الخلق هروباً من هذه اللذة ، ويقول أحدهم : « أنا أهرب من الخلوة لهذا الشأن ! » .

ويستمر الأستاذ قائلاً : « وصاحب هذه الأحوال فى حال هذه اللذة تقوى معرفته ، ويحتد بصره ويصيرته حتى كأنه يسمع وقع أقدام النمل !

وهو فى البداية يتمنى ألا ينام ، ويبذل أكبر همته فى ألا يجد المنام أو يستريح من هذه المسألة ؛ ولهذا فإن علامة صحة هذه اللذة أن العبد لا يأخذه النوم طالما هو فى هذه المسألة حتى لو بقى سنين ، وعندما تضعف هذه المسألة يجد النوم » .

وينقلنا القشيري إلى عهد ابتدائه فى الإرادة لينصح المبتدئين نصيحةً غالية وهى « السكون وإسقاط التدبير » فيقول : « مَثَلُ المبتدئين مع الأحوال كَمَثَلِ الإنسان مع الطير الوحشى ، فإذا كان فى الإنسان حركة أو قوة أو أثر للحياة والحسُّ فرَّ منه الطير الوحشى واستوحش ، ولم يقع عليه ، أما إذا سَكَنَ الإنسانُ فإن الطير الوحشى يتوهَّم أنه ميت لا حراك فيه فيأنس به ، ويقع عليه ولا ينفر منه .

كذلك المبتدئ فى الأحوال يجب أن تسكن حواسه ، وألا تتحرك أنفاسه ، وألا يحرك بدنه أو جزءاً من بدنه ، وألا يد

طَرَفَهُ للأشياء ، وأن يكون مراعيًا لهَمَّتِهِ بحيث لا يتحرك جزء من نفسه أو من بدنه أو من باطنه حتى تبدو له الأحوال بعد طول هذه المراجعة .

وحينما تَرَدُّ هذه الأحوال ينبغي ألا ينظر إليها ، ولا إلى ما يبدو له منها أَلْبَتَةً لئلا يحجب عنها ، وبهذا ينثال عليه المزيد منها - إن شاء الله تعالى « ويستمر قائلاً : » وتعود بى الذكرى إلى عهد ابتدائي في الإرادة والمجاهدة وأحوال الذكر ، فإنه لو استترت عني شيء من هذا السخاء لكان ذلك أهون عليّ من أن أقوم للأكل أو أتحرك للوضوء وغير ذلك . ولكن جاء وقت بعد ذلك حينما كنت أغيب في الذكر أو يغيب عني فيه الذكر ، كان يشق عليّ التقصّي عما أنا فيه حتى لا يقوت الذكر ، بل كانت تدخل عليّ تلك المجاهدات - شئت أم أبيت - لئلا أَرُدُّ إلى ما عليه الناس من أحوالهم « ويستأنف القشيري موضحاً كيف كان يلجأ إلى وسيلة عجيبة ، يطرد بها النوم والغفلة ، فيقول : « كنت أصعد لأقعد على حجرٍ ناتيء في جدار بيتنا ، وكان هذا الحجر من الصغر بمقدار ما أضع عليه قدمي ، وكان من تحتي وادي ، ومن فوقى شاهق .. وهكذا كنت أطرد النوم إذا توهمت نفسي مستلقياً على هذا الحجر الصغير المعلق في الهواء دون أن يكون تحتي شيء » .

ونختم هذا الفصل بنهاية قصة له مع شيخه حينما كان يسيران فى سياحة وخلوة .. « وإذا به يقول لى : « أقعدُ على هذا الحجر وأطبق ما بين شفتيك وقل : يا الله يا الله يا الله » .

ففعلتُ ، واجتهدتُ ألا أفتح الفم حتى امتلأ بالذكر ، وعاد الذكر إلى السر ، وبقيت فى ذلك الوقت على هذا ، واجتهدتُ فى سرى أن أداوم : يا الله يا الله يا الله وأجرى فى سرى ذلك ، وقد يجاوز الخلوة أو لا يجاوزها إلى أن صار ممتداً (راجع ما ذكرناه آنفاً عن امتداد الذكر) ثم أخذتُ عنى ففنيْتُ ، فلما أعدتُ - وكان عند الصلاة - حملنى الشيخ فى تلك الليلة إلى القرية .. وأخذت فى النحول .. إلى آخر هذه القصة الممتعة من واقع تجربته الذاتية .

ولا بد لنا من أن ننبه إلى جملة هامة وردت فى السياق السابق وهى - وكان ذلك عند الصلاة . وتلك هى حال (الفرق الثانى) التى درستناها من قبل ، إذ يحفظ الله عبده المخلص الصادق ، فيعيد إليه الوعى من حال الفناء كى يؤدى الصلاة فى مواقيتها ، فما جاءت الحقيقة لتنقض الشريعة .

* * *

القشيري والشعر الصوفي

هل لنا أن نختم هذا الكتاب بفصل فيه من الإمتاع ما يذهب
بما عانيناه من مشقة البحث طوال معركة المجاهدات والرياضات
والمذاقات ..؟

لم نجد أليق من بحث في عناية هذا الشيخ الجليل بالشعر ،
بل إننا سنُتحف القارئ بنماذج من شعره الخاص .

فليس من شك في أن الرجل أديب له ذوق رفيع ، تملأ
مصنفاته بأشعار الصوفية بل بأشعار مستجلبة من بيئة خارجية
عن التصوف ، هي في الأغلب الأعم بيئة المحبين العذريين
الذين وقفوا أعمارهم على محبوبة واحدة ، أخلصوا لها
الإخلاص كله .

وأصبح لقاء الشعر بالتصوف منذ عهد مبكر لقاء طبيعياً
امتد عبر العصور ، ولا نغالي إذا قلنا إن التصوف فيه جانب
من الفن رائع غاية الروعة .. وكفى للدلالة على ذلك ما نجده
عند ابن عربي وعند ابن الفارض ، وغيرهما ، وما نجده في
الشعر الصوفي الفارسي والتركي والأردى .. إنه تراث مرموق ..
ومن أسف أن بعض الجهات الأدبية التقليدية لا تحفل به كثيراً ..

وليس حديثاً عن النفس إذا قلنا بكل تواضع إننا نفرد له في
تدريسنا وتأليفنا جانباً من الاهتمام ينال تقدير المتصلين بهذه
الدراسات سواء من أهل التصوف أو أهل اللغة والأدب .

إننا نؤمن إيماناً قوياً بعلاقة التصوف بالشعر ، والشعر
بالتصوف .. والشاعر التقليدي إذا وصل إلى درجة الأصالة
الحقيقية إنما تمر به لحظات إلهام وابتعاد عن الوعي أقرب ما
تكون من لحظات الفناء عند الصوفى - كما رأينا ..

فالإلهام والفناء كلاهما غياب عن الوعي ، ومن هذه
المناطق الرائعة تنطلق المعانى الجميلة البعيدة عن الحس
والمحسوس .

ولهذا فإننا نستطيع أن نحكم بأن غزليات التصوف
وخمرياته هى أنقى ألوان الأدب ، لأنها خالية من الصنعة
والزيف والغش ، حافلة بالصدق والحرارة والدفء ، وهل هناك
أروع من شعر يعبر عن أروع تجربة يخوضها الإنسان ..
ونعنى بها محبة الله ؟

وهل ثمة فرصة لخداع الكلمة .. والكلمة هنا تصاغ فى
كنف من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور - جل شأنه .

وهل ثمة جمال وجلال أروع من الجمال الإلهى والجلال

الإلهى حتى يقبل العبد على مذاقات الأنوار ، وهى تنثال على ملكاته الوجدانية فتمنحه طاقة التعبير المثلى : الشعر الجارف .

على كل حال .. ما يهمنا هنا هو أن القشيري قد أدخل هذه النقاط فى حسابه ، فأراد - وهو الباحث الذى يكتب النثر - أن يلون أبحاثه بشعر جيد ، وهو بهذا يزيد المسائل توضيحاً من ناحية ، ويحبب الموضوع لكل الأذواق ، ويجذب المريدین نحو هيئة من التعبير تستهويهم فى كنف التصوف بدلاً من أن يلتمسوها فى بنية الأدب التقليدية ، فكأنه يريد أن يقول لهم : « عندنا ما عندهم .. إن باب « السماع » عندنا له قدره واحترامه ، ويمكن لو أردنا إطالة الدراسة أن نقسم الموضوع على النحو التالى :

١ - شعر خاص به .

٢ - شعر استجلبه من عند غيره .

ونسبح لأنفسنا أن نطلق على النمط الأول شعراً من (إنشائه) وعلى النمط الثانى شعراً من (إنشاده) .

وكلاهما موضح قام التوضيح لتجربة التصوف .

وخلاصة هذه التجربة كما قلنا من قبل : « الحب » .

الحب بكل معانيه فهو هنا مصروف إلى اللقاء والهجر ،

والبعد والقرب ، والوداع ، والوصل والفصل ، مواعيد تُضرب
وتُخلف - شكوى وأنين من غيبة المحبوب ، بهجة وسعادة عند
لقائه ... إلى آخر ما نعلم من تجربة الحب الإنساني منقولةً
إلى تجربة أسمى وأسنى .

ولنحاول أن نقطف من القشيري قطقات مسرعة فى بعض
هذه المجالات داعين القارئ إلى المطولات ، إن وجد فى الأمر
شيئاً من متعة .

وهديتنا إلى القارئ فى البداية هى هذه الباقة الجميلة من
أشعاره ، جمعناها من سائر مصنفاته طوال عشرتنا الطويلة معه .
ونستمع إليه دون أن نتدخل كثيراً ، يقول خلال تفسيره
لسورة يونس (فى اللطائف) :

طلع الصباح فلات حين سراج وأتى اليقين فلات حين حجاج
وصل الذى كنا نؤمل نيلك من عقد ألوية وحل رتاج
قد حان أيام السرور فحيها لهواجم الأحزان بالإزعاج
وله فى تقلب الأحوال :

فبتنا بخير والدنى مطمئنة فأصبحت يوماً والزمان تقلبا
ويطمئن ذوى القلق من تغير « الوقت » فيقول :

إِنْ تَابَكَ الدَّهْرُ بِكُرُوْهِهِ فَقُلْ بِتَهْوِينِ تَصَانِيْفِهِ

فَعَنْ قَرِيبٍ يَنْجَلِي غَيْمُهُ وَتَنْقُضِي كُلُّ تَصَارِيْفِهِ

وفى مقطعة طويلة نسبياً يصورُ القشيري حالة تائب تيقظت فيه مشاعر شتى ؛ الإحساس بالذنب ، والخوف من قرب الأجل ، وفوات الأوان ، وعقد النية على (اللاعودة) وتأكيدها على مواصلة المسير فى طريق الحق ، وما عند الله من أعواض :

جَنَّبَانِي الْمَجُونُ يَا صَاحِبِيَا وَاتْلُوا سُورَةَ الصَّلَاةِ عَلَيَا

قَدْ أَجَبْنَا لَزَاجِرَ الْعَقْلِ طَوْعاً وَتَرَكْنَا حَدِيثَ سُلُوكِ وَمِيَا

وَفَتَحْنَا لِمَوْجِبِ الشَّرْعِ نَشْراً وَشَرَعْنَا لِمَوْجِبِ اللّٰهِ طِيَا

وَوَجَدْنَا إِلَى الْقَنَاعَةِ بَاباً فَوَضَعْنَا عَلَى الْمَطَالِبِ كِيَا

كُنْتُ فِي حَرِّ وَحْشَتِي لِاخْتِيَارِي فَتَعَوَّضْتُ بِالرَّضَا مِنْهُ فَيَا

إِنْ مِنْ يَهْتَدِي لِقَطْعِ هَوَاةٍ هُوَ فِي الْعِزِّ حَازَ أَوْجَ الشَّرِيَا

وَالَّذِينَ ارْتَوَوْا بِكَأْسِ مَنَاہِمِ فَعَلَى الصَّدْرِ سَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَا

وله فى التوكل :-

قَبِيحٌ - بِيَّ وَرَبُّ الْعَرْشِ رَبِّىَ - أَخَافُ الْفَقْرَ أَوْ أَخْشَى اِفْتِقَارَا

وَكَيْفَ وَأَنْ أَمِدَ لَهُ يَمِينَا لَتَدْعُوهُ وَيَمْنَحُهَا الْيَسَارَا

وَيَنْسَبُ السَّبْكِي لَهُ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ :

لو كنت ساعة بيننا ما بيننا وشهدت حين نكرر التوديعا
أيقنت أن من الدموع محدثا وعلمت أن من الحديث دموعا
ونسب له صاحب (لغت نامه) بعد ترجمته هذين البيتين :
سقى الله وقتاً كنتُ أخلو بوجهكم
وثغر الهوى فى روضة الأُنس ضاحكُ
أقمتُ زمانا والعيون قريرة
وأصبحتُ يوماً والجفون سوافكُ
أليست هذه أحوال القبض والبسط ؟

* * *

وننتقل الآن إلى جولة خاطفة بين مصنفاته ، لنورد بعض ما
استجلبه من أشعار كشواهد على دراساته فى الموضوعات
الصوفية المختلفة ، ولنعذرنا القارئ إذا لم نحرص على
تبويب الشعر بحسب موضوعاته لأن المقصود هنا هو إثبات
عنايته بالشعر دون رصد لشيء غير ذلك .

من الخافرات البيض ودٌ جلسُها

إذا ما انقضى حديثها أن تُعيدَه

● يقول سابق البربرى حين طلب إليه عمر بن عبد العزيز أن

ينشده شيئاً :

فكم من صحيح بات للموت آمناً
أنته المنايا بغتةً بعد ما هجع
فلم يستطع إذ جاءه الموتُ بغتةً
فراراً ولا منه بقوته امتنع
وينقل عن مالك بن دينار أنه أنشد ذات يوم :
أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَنَادَيْتُهَا أَيْنَ الْمُعْظَمِ وَالْمُحْتَقَرِ ؟
وَأَيْنَ الْمُدُلِّ بِسُلْطَانِهِ وَأَيْنَ الْعَزِيزِ إِذَا مَا قَدَرَ ؟
وَأَيْنَ الْمُلْبَى إِذَا مَا دَعَا وَأَيْنَ الْمَرْكُوبِ إِذَا مَا افْتَحَرَ ؟
قال : فنوديتُ من بينها ولا أرى أحداً :
تفانوا جميعاً فما مُخْبِرٌ وماتوا جميعاً ومات الخبير
تروح وتغدو بنات الثرى وتحى محاسن تلك الصور
فيا سائلى عن أناسٍ مضوا أما لك فيما ترى معتبر ؟!
وينشد ليحيى بن معاذ الرازى نصاً له أهميته فى « السماع » :
دَقَقْنَا الْأَرْضَ بِالرَّقْصِ عَلَى غَيْبِ مَعَانِيكَ
وَلَا عَيْبَ عَلَى رَقْصٍ لِعَبْدٍ هَائِمٍ فَيْكَ
هَذَا دَقَقْنَا لِلْأَرْضِ ضِيقاً إِذَا طَفْنَا بِوَادِيكَ

ألا تلحظ فى هذا الشعر كيفية هيام الصوفية حينما يغمرهم
الحب العالى فلا يملكون إلا التنفيس عن كوامنهم بالحركة ودق
الأرض ، لعل ذلك يخفف عنهم ما يعانون من ضغوط !
هذه أشياء لا يسيغها إلا الذائقون .
وأنشدوا :

ولوأننى أعطيت من دهرى المنى
وما كل ما يعطى المنى بمسد
لقلت لأيام مَضَيْنَ ألا ارجعى
وقلت لأيام أَتَيْنَ ألا ابعدى
وعن جوهر المرء عند الابتلاء ينشد :
مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ فَضَحَ الامْتِحَانُ مَا يَدَّعِيهِ
وينشد عن رحمة الله بعبده هذا الشعر الجميل :
حَاسِبُونَا فَدَقُّوا ————— ثُمَّ مَنُّوا فَأَعْتَقُوا
قوم إذا ظفروا بنا جادوا بعثق رقابنا
وعن الوجد والفقد ينشد :
أموت إذا فقدتك تم أحيا فكم أحيا عليك وكم أموت
وعن أن الذل فى كنف الله هو منتهى العز عند هؤلاء القوم :

وإذا تذلل الرقاب تقرباً منا إليك فعزُّها في ذلِّها
وينشد أيضاً :

وكانت على الأيام نفسى عزيزة
فلما رأَتْ صبرى على الذلِّ ذلَّتِ
وينشد فى الصحبة وعلاقات الخلان بعضهم بعضاً :
إن الكريم إذا جباك بوده ستر القبيح وأظهر الإحسانا
وكذا الملوك إذا أراد قطيعةً ملَّ الوصال وقال كان وكانا
وفى نفس المعنى ينشد فى موضع آخر :
وتبصر فى العين منى القَدَى وفى عينك الجذعُ لا تبصر

* * *

ونظن أنه يكفى من الشعر هذا القدر ، وإنما أردنا أن ننقل
القارىء فى ختام الكتاب إلى روضة من رياض الصوفية ، فاح
أريجها فى كل العصور ، ولفت أنظار العامة والخاصة إلى
أناقتهم فى التفكير والتعبير على السواء .

* * *

بيان بمصنفات القشيري

جميع كتب القشيري مخطوطة ما عدا :

١ - الرسالة : طبعت عدة مرات

٢ - المعراج : طبعة دار الكتب الحديثة وأشرف على
إخراجه الدكتور على عبد القادر .

٣ - التعبير في التذكير : نشرها وحققها الدكتور إبراهيم
بسيوني .

٤ - لطائف الإشارات : نشرها وحققها الدكتور إبراهيم
بسيوني .

٥ - ترتيب السلوك في طريق الله تعالى : نشرها وحققها
الدكتور إبراهيم بسيوني .

٦ - شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة :
وتجدها ضمن أطروحة الدكتوراه للدكتور إبراهيم بسيوني .

٧ - فتوى : وتجدها ضمن أطروحة الدكتوراه لـ د. إبراهيم
بسيوني .

- ٨ - شرح أسماء الله الحسنى : نشرها الحلواني .
- أما كتبه الأخرى التى نعرفها من كتاب التراجم فهى :
- ٩ - التيسير فى التفسير : عندنا منه نسخة مصورة للجزء الخامس فقط من مكتبة شرق شناسى بطشقند .
- ١ - الأربعون حديثاً
- ١١ - استفادات المرادات : استانبول
- ١٢ - حياة الأرواح والدليل على طريق الصلاح والفلاح : اسكوريال .
- ١٣ - القصيدة الصوفية (الجزائر)
- ١٤ - التوحيد النبوى
- ١٥ - اللمع
- ١٦ - الفصول
- ١٧ - الفتوة
- ١٨ - نحو القلوب الصغير : نشره علم الدين الخيرى : (تونس) .
- ١٩ - نحو القلوب الكبير : هياؤه الدكتور بسيونى للطبع .
- ٢٠ - المقامات الثلاثة

- ٢١ - آداب الصوفية : مفقود
- ٢٢ - نكت أهل النهى
- ٢٣ - أحكام السماع : مفقود
- ٢٤ - عيون الأجوبة فى أصول الأسئلة .
- ٢٥ - الجواهر .

* * *

نموذج لتفسيره الإشاري ننهي به هذا الكتاب

يقول عند : « بسم الله الرحمن الرحيم »

(..... « اهدنا الصراط المستقيم » الهداية : الإمالة .

والمعنى : « ملّ بنا إليك ، وخذنا لك ، وكنّ علينا دليلنا ،
ويسّرْ إليك سبيلنا ، وأقم لنا هممنا . واجمع بك همومنا ،
واقطع أسرارنا عن شهود الأغيار ، ولوح في قلوبنا طوالع
الأنوار ، وأفرّد تصورنا لك عن دّس الآثار .

رّقنا عن منازل الطلب والاستدلال إلى ساحات القرب
والوصال ، وملّ بنا عن مساكنة الأمثال والأشكال بما تلاطفنا
به من وجود الوصال ، وتكاشفنا به من شهود الجمال .

أرشدنا إلى الحقّ لئلا نتكل على وسائط المعاملات ، ويقع
على وجه التوحيد غبارُ الظنون وحسائر الأعلال » القشيري في
لطائف الإشارات .

* * *

خاتمة

والحمد لله أولاً وآخراً ..
ونبتهل إلى العلىّ القدير أن ينتفع بهذا الكتاب كلُّ مقتربٍ
من هذه الروضة المباركة ..
وأن يتقبله فى أعمالنا ..
إنه نعم المجيب .

إبراهيم بسيونى
خادم الإمام القشيري ومحققه
وشارحه

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة
تقديم للدكتور أبو الوفا التفتازانى	٣
مقدمة المؤلف ،	٥
البيئة الصغرى للقشبرى	٧
المحنة الكبرى فى حياته	١٧
أبناءؤه	٢٢
- دراسة مختصرة لأهتمامه بعلوم النقل والعقل	٢٤
القشبرى وعلم الكلام	٢٩
روءية الله	٣٤
القشبرى والتفسير	٣٧
القشبرى المحدث	٤٦
القشبرى الفقيه	٥٠
تصوفه	٥٣
القشبرى الباحث الصوفى	٦٢

الصفحة	الموضوع
٦٣	أولا : مذهبه فى التخلق
٧٤	مقامات الطريق
٧٧	ثانيا : مذهبه التذوق
٧٩	الحب والفناء وأحوالهما
٨٩	ثالثا : مذهبه فى التحقق
٩١	المشاهدة
٩٤	العرفان
٩٧	أوصاف العارفين
٩٩	الولاية
١٠١	حواش هامة
١٠٩	القشبرى والشعر الصوفى
١١٨	بيان بمصنفات القشبرى
١٢١	نموذج لتفسيره الإشارى
١٢٢	خاتمة

* * *

رقم الإيداع : ٧٣٩٢ / ١٩٩٢
الترقيم الدولى : 0 - 068 - 241 - 971 I.S.B.N.

الطبعة الأولى

٢١٤١٢ ~ ٢١٩٩٢

٢٠٠

Bibliotheca Alexandrina



0348205